العاهرة والإمام

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

الكتاب: العاهرة والإمام

- **المؤلف: المفضل أزعبال**
- **نوع العمل: رواية**
- **الطبعة الأولى 1440 هـ - 2020 م - القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

- **رقم الإيداع : 2018 / 3455**
- **الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6754-99-7**
- الغلاف: فريق ببلومانيا
- تنسيق وإخراج: فريق ببلومانيا
- المدير العام: جمال سليمان
- العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة
  عنوان (2): 38 شارع عمر المختار – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 0020226061014
- محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.bbibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

العاهرة والإمام

رواية

المفضل أزعبال

www.bbibliomania.com

2020

إهداء

إهداء إلى أبناء وطني الحبيب ولمن لا صوت لهم.

إهداء إلى الفقراء والمشردين في كل بقاع الأرض والذين لا مأوى تحميهم.

إهداء إلى ذلك الصوت الحر الذي يحثنا على التغير، صوت الضمير الذي لا يملكه الفاشلون.

إهداء إلى كل الأصدقاء والمتباعين من كل الأوطان الذين شجعوني على خطوات نشر هذه الرواية.

*****

☆ عزيزي القارئ والقارئة .. قبل شراء رواية " ٤٠ ليلة مع عاهرة " ركز معي لأخبرك ببعض المعلومات لكي لا تندم في ما بعد :

هذه الرواية هي الرواية الأولى للكاتب

☆ سأعترف لك، لقد تم رفض روايتي من قبل عدة دور نشر ، لدى سأترك لك هنا بعض الأمثلة.

☆حسب سياسة الدار عندنا لا يمكننا قبول عملك.. نعتذر لك.

☆....روايتك جميلة، سنكون سعيدون بوجودك معنا، لكن عليك حذف بعض الفقرات ووضع تغيرات على عملك لكي يتماشى مع سياسة الدار.

☆برنامج النشر عندنا ممتلئ .

☆لا ننشر الأعمال التي تتطرق لمواضيع سياسية ودينية.

هذه عينة بسيطة عزيزي القارئ لدى الدار التي ستقبل نشر روايتي إن حدث هذا (مع الكثير من الشك) سأكون شاكراً لها وتستحق كل الاحترام، وبالفعل يمكننا القول هناك منصة ثقافية لديها الشجاعة وتحترم القلم بثقته وجرأته

*****

كانت ليلة باردة من أيام نيسان بسمائه الصافية، وكانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة بعد منتصف الليل ، عندما كنت عائداً من خطبة صديقي مشياً على الأقدام ، اقتربت من المنزل الذي أقطن فيه.

رأيت شخصاً متجها نحوي يتمايل شمالاً ويميناً؛ قبل أن يصل إِلي وقع على الأرض ، ذهبت للاطمئنان عليه فإذا بي أتفاجأ أنها فتاة ، الأسئلة التي كانت تدور في رأسِي، ماذا تفعل هذه الفتاة في هذه الساعة، من هي ؟

حاولت أن أُيقظها ولكن دون جدوى، كانت رائحة الخمر تفوح منها، بدأت أفكر هل أدخلها إلى بيتي حتى الصباح، ولكن إن فعلت ستتعرض سمعتي للإساءة، وهذه الفتاة الله يعلم أصلها ، تركتها وابتعدت خطوات إلى الأمام، ولكن ضميري أنَّبني ورجعت إليها، حملتها إلى بيتي، تركتها تنام وقررت أن أيقظها بعد صلاة الفجر، لم أنم تللك الليلة، وحينما اقترب الفجر ذهبت للمسجد، صليت وعدت مسرعًا لكي أيقظها وتخرج قبل أن يراها الجيران، وهي تخرج من بيتِي ناديتها، أختاه استيقظي، كررت النداء ولم تسمع، فكرت في نفسي، أيعقل أن تكون ماتت لاقدر الله!؟

فتحت الباب ودخلت مسرعاً، سحبت الغطاء من فوقها دون أن أشعر بما أفعل، رأيت ما لم تره عيني يوما، سبحان الله العظيم------ ـ تجمدت في مكاني أتأمل، جمال رباني، لا تضع أي مساحيق، عيون هادئة كسكون الليل، وبشرة بيضاء كالبدر يوم تمامه، ووجه يدخل السكينة والسلام والسرور لناظره، قاطعتني، هل أنت مجنون ؟من أنت ؟وماذا تفعل هنا ؟!

شرحت لها الموقف وقلت لها رجاءاً أُخرجي من بيتي، اليوم الجمعة وسيأتي بعض الأصدقاء للغداء معي، أومأت برأسها على أنها موافقة، كانت ثيابها كاشفة لمفاتن جسدها، رددت في نفسي أستغفر الله أستغفرالله.. وتوجهت نحو باب الغرفة.

ـنادتني بالمناسبة ما اسمك؟ استدرت وأجبتها لا يهم من أنا.

ـردت تبدو مثل، نسيت ماذا يقال له، لحظة تذكرت، إمام مسجد.

ـنعم، هو كذلك، وأنتِ ما اسمك؟

قالت لي:

_ اسمي عاهرة، وكان شرف لي أنني قضيت هذا الليل في بيت إمام مسجد من تعرفت عليهم في حياتي، أو بالأحرى من جمعتني بهم الليالي السوداء، مدمنوا الخمر، أو رجال سياسة فاسدين، أو مراهقين مدللين ـــأما أنت فإمام مسجد، يا سلام !!

ـ قاطعت كلامها، أكيد تمزحين، لايمكن أن يكون هذا الكلام صحيح يا أختاه،

ـردت، مع الأسف صحيح، أنا عاهرة أبيع جسدي للذئاب مقابل ثمن بخس، هذه الحياة أيها الصديق المجهول، عفواً السيد الإمام، لم أختر هذه الحياة، ولكن ماذا أفعل؟

ـ سألتها:

_هل لديكِ عائلة، أب، أم، أي أحد؟

أجابتني:

_لا، أعرف أن قصتي طويلة ومملة ولا تستحق تضييع وقتك بها

ـ أنتِ أدرى بذلك، ولكن عليكِ أن تخرجي من بيتي، لا أريد متاعب مع الجيران.

ـ سأخرج، ولكن لدي سؤال، أصدقاؤك اليوم معرضون للغذاء معك، من يحضر لك الأكل ؟

ـبنفسي، أحضر القليل وأشتري القليل من مطعم قريب.

ـ ممكن طلب بسيط، أن أبقى اليوم معك وأحضر لك الأكل؟

لن أحظ بهذه التجربة يوما، لاتخف أجيد الطهو جيداً.

ـفكرت لو رفضت ستحس بالألم وتفكر بأن الكل سيء، ولكن إذا وافقت لا أعرف ماذا سيحدث، ولكن لنجازف قليلاً.

ـأجابتها موافقا، ولكن بشرط، يجب أن تغير هذه الملابس، وكذلك حركاتك وتصرفاتك.

ـ_ردت موافقة تغير الملابسِ، ولكن تصرفاتي، لن أعدك بشيء، لقد اعتدت عليها.

ـ_ سأخرج لأشترى لكِ ثياباً تناسبك، وأشتري ما ستحضريه لنا أيتها الطباخة

ـسألتها :

_عن قياسها؟

- لا أعرف، ولكن تعال لترى بنفسك، لا تخجل.

خرجت إلى الحي، ذهبت إلى أحد البقالين، أعطيته القائمة وقلت له سأرجع لها بعد قليل، وأكملت طريقي إلى متجر للملابس، اشتريت لها ثياباً محترماً تناسبها وتناسب جميع الفتيات المسلمين، ولكن ما أثار انتباهي هذه الملابس، لم تكلف الكثير، وهناك ملابس كان الطلب يكثر عليها، نصفها ممزق، لاتصلح للباس ـــرجعت بعدما

أخذت الطلبية من عند البقال، لم تكن مسرورة باللباس الذي اشتريته لها، لأنه ليس الذوق المناسب لها.

_ لماذا هذا اللباس، ألا تعرف نحن العاهرات أي نوع من اللباس نرتدي؟

_ أنتِ في بيتي، وأنتِ أخت لي، ولا أرضى لعائلة إلا مايرضه ديننا، وهذا اللباس كذلك.

_ سأرتديه طالما أنا معك.

بدأت تخلع ثيابها أمامي، وقفتها.

ـ_ ماذا تفعلين، هل أنتِ مجنونة أم ماذا؟!

ـ _كنت أخلع ثيابِي، ما العيب، لماذا تستحي مني؟

لا تنسى أني عاهرة.

ـ_قلت لها في غضب: لا أستحي منك وإنما من الله سبحانه وتعالى، والآن ادخلي إلى إحدى الغرف وغيري ملابسك.

ـجلست أنتظر لأرى هل اللباس سيكون على قياسها؟

وبعد دقائق قليلة خرجت ـ-يا إلهي، ورحت أركز النظر من أسفل قدميها حتى عينيها، كل شيء تغير فيها، جميلة، ولباس الحياء زادها جمالاً فوق جمالها..وقفت مندهشا..وأنا أتلعثم في الكلام، أنظر في المرآة، يا أختاه، كم يناسبك هذا اللباس.

ـ_قالت لي: يا ليتني أنا أناسبه، ولكن هذا اللباس لديه من يستحقه فعلا

ـاتجهت صوب المطبخ، بقيت شارد الذهن، أتأسف لحالتها ولحالات كثير مثلها في أوطاننا العربية، وحسرة بلاد المسلمين، في هذه اللحظة، نادتني، ذهبت إليها، ماذا تريدين ؟

ـ هل أفعل هذا وذا ؟

ـ افعلي ما تريدين، البيت بيتك الآن.

ـ عندما تعود ستكون هناك مفاجأة.

خرجت للصلاة.

بعد الصلاة التقيت الأصدقاء كما اتفقت معهم، حسن وهو محامي فاشل نوعا ما، وعادل مدرس، وخالد إعلامي.

رجعت رفقتهم إلى البيت، حاولت فتح الباب ولكن دون جدوى، كان موصودا من الداخل، فكرت في نفسي ماذا تخطط له ياترى؟ أنا من فعلت هذا بنفسي، وأي مفاجأة كانت تقصد؟ ـــطرقت الباب وفتحت ونادتني، تفضل زوجي العزيز وانصرفت، وقفت مذهولاً، وكذلك أصدقائي.

ـوفجأة بدأت الأسئلة تتهاطل علي، متى تزوجت؟ ولماذا لم تدعونا إلى عرسك؟ شرحت لهم القصة، ولكن مع ذلك زادت أسئلتهم، هل تحبها؟ هل نصبت عليك؟ أكيد ستفعل.

المحامي يسأل بأسلوبه وخبرته، وبالقضايا التي يتعامل معها .

والإعلامي بأسلوبه وبالقصص التي يسمعها من المتابعين في برنامجه الفاشل الذي يتم بثه كل خميس وسبت، والمدرس اكتفى بالنصائح.

ـنادت عليَّ من داخل المطبخ، زوجي.

بدأ الكل يضحك، اذهب إلى زوجتك إنها تناديك.

ـدخلت إلى المطبخ، وفي لحظة غضب وبختها قليلا وطلبت منها ألا تناديني زوجي.

ـ فعلت هذا من أجلك ومن أجل سمعتك، والآن خذ الطعام لضيوفك المحترمين.

ـأخذت الطعام، كانت رائحة الأكل طيبة، ولم أفكر إلا في الأكل الذي تعده أمي.

ـالكل كان معجب بطبخها، أكلت القليل، ذهبت إليها، وجدتها لا تأكل.

ـ لماذا لا تأكل معهم ؟أليس من واجبك ؟

ـ من واجبي أن آكل معك، ابتسمت.

ـهل مازلت تريد أن تعرف لماذا ناديتك زوجي؟

ـ نعم، لماذا؟

ـأنت إمام مسجد، وأنا فتاة لوحدي معك، بالتأكيد كانوا سيفهمونك بشكل خاطئ، ولكنك خيبت ظني مع الأسف، أخبرتهم بكل شء عني، لا مشكلة، في الأخير أبقى عاهرة.

قلت لها: أعتذر، لم أقصد، هل تغفرين لي ؟

قالت لي: لابأس، الذنب ذنبي، يجب ألا أتوقع الكثير، ولا أنسى من أنا...المهم اذهب لترى ضيوفك إن كانوا يحتاجون لشيء.

ـخرجت إليهم ...كانوا يتحدثون، وجل ما سمعته مع السلامة نلتقي مرة أخرى، ودعتهم.

ـوبعد لحظة أتت إلي هي الأخرى تستودعني.

- سألتها : إلى أين ؟

أجابت : إلى بيتي، وبعدها سأتوجه إلى وجهتي المعهودة، شكرًا على كل شيء، أنت أول شخص أنام فى بيته ولم يقترب مني، أول مرة أحس بقيمة جسدي

ـ قلت لها : هل بإمكاني رؤية البيت الذي تعيشين فيه ؟

ـ أجابت : موافقة، رغم أنه لن يناسب مقامك.

ـ ذهبت معها، وحين وصلنا رأيت بيتا كان عبارة عن شقة صغيرة، أو بعبارة أخرى كوخاً، فتحت الباب، كانت الفوضى تعم المكان، سرير في الوسط، وقنينات شراب، أحدها فارغة وأخرى مملوءة، مسكت إحدى القنينات وبدأت تشرب.

ـ قالت لي : أعتذر، ولكن أنا مدمنة، ماذا أفعل؟

ـ بدون أن أشعر خطفتها من يدها وزفيت بالزجاجة على الأرض

قالت لي: هل تعرف ثمنها؟ إنها تساوي الألف، أكثر من راتبك الشهري

ـ أجبتها : إذا كنتِ تملكين المال لماذا تعيشين هنا؟

قالت لي : ليس أنا من يشتريها وإنما زبائني.

أخذت قنينة أخرى وهي تقول: آسفة، لا أستطيع التخلي عنه، حاولت مرارا وتكرارا لكن بدون جدوى.

ـ قلت لها سأساعدك لتتخلصي من هذا السم ...لكن عليكِ أن تبقي معي ٤٠ ليلة.

أجابت: أيها الإمام بدون لف ودوران، هل ندمت لأنك خرجت خالي الوفاض؟ لكن لاعليك سأقدم لك جسدي لليلة واحدة حتى تمل منه ...رغم أني لا أسمح لأحد

بالاقتراب مني حتى أثمل وأصبح في عالمي الآخر فاقدة للوعي والحواس، لكن أنت ستحظى بمتعةمن نوع خاص لم ولن يذوقها أحد سواك .

ـأما ٤٠ ليلة ستمل، وكذلك لن تستطيع دفع المبلغ الذي أتقاضه في ٤٠ ليلة.

ـقلت لها :سأدفع لك، لا عليك، والآن لنخرج من هنا.

ـوفي هذه اللحظة جاء صاحب الشقة يطالب بمبلغ الكراء.

ومعه رجال الشرطة وهو يسب، لعنة الله عليك أيتها العاهرة، لا تدفعين، ودنستِ بيتي، جعلته داراً للدعارة، انظر سيدي، كل ليلة تأتي بشخص من هؤلاء.

ـأحسست كأنه يراقبها من فترة للقبض عليها متلبسة، واليوم أنا الضحية، نعم لقد جنيت على نفسي.

ـتم أخذنا إلى مخفر الشرطة للتحقيق معنا.

ـوهنا بدأت الأسئلة تتوجه إلي، هل تقول على نفسك إمام؟ ألاتستحي من فعل هذا؟

ـدافعت عن نفسي وعن كرامتي بكل صوت.

ـقال لي أحد الضباط: اعترف وستكون عقوبتك أخف، لاتضيع وقتنا معك.

أجبت: بماذا سأعترف،وأي ذنب اقترفت؟!

ـسردت لهم القصة بكل تفاصيلها المملة، ولكن لم يصدقوها

ـسألني ضابط آخر، هل لديك شاهد على أقوالك؟

ـأجبته: نعم، الإعلامي خالد ـ ـوالمحامي ـومدرس اسمه

ـقال لي: هل تجمعك بهم قرابة؟

قلت له : إنهم أصدقاء لي

قال لي : مع الأسف هذه الليلة ستبقى في ضيافتنا لأن شهادتهم غير مقبولة

ـوجه الضابط السؤال لها: ماذا كان يفعل معك في شقتك، وماذا أراد منك؟

أجابت: طلب أن أبقى معه ٤٠ ليلة وأنا وافقت على ليلة واحدة.

ـالضابط ينادي على ضابط آخر، تعالى لتسمع، أليس هذا الإمام الذي كنت تصلي وراءه التراويح في رمضان؟

ـجاء الضابط وسمع القصة هو الآخر، ولكنه صدق كل حرف قلته، وفسر للضابط الآخر سوء الفهم من وجهته.

قال لي: مشكلتك معقدة، سأحاول إخراجك من هنا، ولكن رئيس القسم ليس هنا للتوقيع على المحضر، ستبقى معنا حتى الصباح، هل تحتاج لشيء؟

ـقلت له : أريد الاتصال بصديق لي، وافق واتصلت به لأطلب منه أن يهتم بالمسجد في غيابي، ويقم الصلاة بالناس

ـأخذني الضابط إلى إحد الزنازين، كانت هذه الليلة طويلة رفقة مجموعة من الأشخاص، كل وتهمته ـ-السارق ـ-والسكير-ـ-والمظلوم وهو ظالم في نظر القانون.

ـوفي الصباح جاء رئيس المخفر وتم استدعاءي للتوقيع على المحضر.

ـسألت عنها.

قال لي :الضابط لن تخرج حتى يتم تقديمها إلى المحكمة

لديها سوابق، وهناك دعوى موجهة إليها.

قلت له : أريد إخراجها، سأدفع كل مستحاقتها، استغرب

وقال لي : سأتصل بصاحب الشقة.

ـجاء صاحب الشقة، دفعت له ولكنه رفض التنازل عن الدعوى لأنها دنست بيته، وخرج.

ـأكملت الإجراءت القانونية وذهبت إلى بيته محاولا إقناعه بأسلوبي، المسامح كريم واجعلها في ميزان حسانتك، وإن شاء الله ترجع للطريق الصحيح.

اقتنع أخيراً، وأخذته معي للمخفر، ولكن وجدت مفاجأة لم أتوقعها، كيف تفعل هذا؟

- سألت الضابط عنها؟

قال لي: لقد جاء مساعد الوزير اسمه أيمن وأخرجها معه بعد خروجك بقليل

قلت له : ألم تقل بأنه لايمكن أن تخرج إلا بعد تنازل صاحب الشقة.

أجاب: هؤلاء هم من يضعون القوانين ويغيرونها على حسب رغبتهم أيها الإمام، ولكن أخدنا رقمها، ويمكنني أن أتخطى القانون قليلا وأزودك بمعلومات عن مكان الوزير.

قلت له : لماذا تفعل هذا ؟

أجاب : أنت شخص جيد وهدفك فعل الخير، وأنا أريد مساعدتك

ـأخدت رقم هاتفها ومكان تواجد الوزير.

ـ خرجت، فكرت ما الذي أفعله بنفسي، لقد قضيت ليلة في زنزانة مسجوناً كأني مجرم!

ـسمعت صوت صاحب الشقة، أيها الإمام توقف، استدرت، ما الأمر؟

قال لي: عادة الإمام من يعطي النصائح، ولكن هذه المرة سأنصحك بعدم الركض وراءها، لقد ضيعت حياتها فلا تضيع حياتك أنت الآخر، العاهرة تبقى عاهرة.

ـ أكملت طريقي إلى منزلي وأنا أفكر هل كلامه صحيح ؟ هل أي فتاة من مجتمعاتنا ضلت الطريق نتخلى عنها ونتركها !

من يتحمل مسؤولية هؤلاء الفتيات، هل هن أم المجتمع ؟

هل هذا الطريق هن سعداء باختياره، أم مجبرون؟

وصلت إلى البيت، وجدتها تنتظرني.

قلت لها : ماذا تفعلين هنا؟

أجابت: لم تمر ٤٠ ليلة كما اتفقنا، وليس لي مكان أذهب إليه، ولا أعرف أحدًا غيرك.

ـ قلت لها : ماذا عن الوزير وزبائنك؟

ـ قالت : الوزير أعرفه من زمان، اتصلت به لإخراجي من هناك.

ـ قلت لها : والآن ماذا تريدين؟

ـ أجابت: أريد البقاء معك حتى أستأجر شقة أخرى وبعدها سأغادر منزلك.

ـ قلت لها : تفضلي حتى تنتهي المدة المحددة.

ـ دخلنا إلى الداخل، وبعد دقائق سمعت صوت الجرس.

– قالت لي: هل أفتح الباب؟

– قلت لها : سأفتحه بنفسي.

ـ فتحت الباب، وجدت الجارة نادية وفي يدها علبة.

ـ قالت لي : البناتِ عملن الحلوى، ففكرت أن آتي لك القليل.

ـ أخذت العلبة وشكرتها.

ـ أغلقت الباب وناديتها.

ـ قالت لي: ماذا يوجد في العلبة؟

ـ أجبت: بعض الحلوى، خذيها.

ـقالت لي : ممن هذه ؟ ولماذا؟

ـقلت لها: هذه جارة دائماً تفعل هذا، إنها امرأة صالحة.

ـقالت لي: هل لديها بنات، شيء من هذا القبيل؟

ـقلت لها : لديها ثلاث فتيات في عمرك، زينب، وألاء، وحنان، وهن لم أرى منهن إلا الخير، نقلة طيبة.

ـ قالت لي : الآن أصبحت الأمور واضحة أيها الإمام، أكيد إحدى بناتها عملت الحلوى.

ـقلت لها : ما الواضح، وما الذي تتحدثين عنه؟

ـأجابت : أيهما تناسبك، زينب، أم أخواتها؟

قلت لها : هؤلاء جيران، أحترمهم ويحترموني، لذا فلتصمتي أحسن لك.

ـ خرجت للمسجد لأتفقد الأمور، ورجعت إلى البيت بعد صلاة العشاء، بحثت عنها ولم أجدها.

ـ تذكرت العنوان الذي أعطاه لي الضابط، خرجت أبحث عنها، وجدت نفسي أمام ملهى ليلي.

ـبدأت أتسائل مع نفسي، هل أدخل لإخراجها من هناك ؟ وهل يسمح لأشخاص مثلي بالدخول، وبهذه اللباس؟

ـذهبت للحراس، سألتهم هل بإمكاني الدخول بهذه الملابس؟

ـأجاب وهو يضحك: بإمكانك أن تخلعهم وتدخل بدون ثياب.

ـقلت له: لاتسيء الفهم، أنا إمام مسجد.

ـأجاب : لا عليك، هناك ستجد عدداً كبيراً.

دخلت، ما رأيته هناك يدمع القلب، فتيات صغيرات، يجب أن يكن في فراشهن في هذه الساعة من أجل الاستيقاظ للمدرسة!!

لفت انتباهي ذلك الرئيس الذي كان يقول في حملته الانتخابية سأقضي على الفساد والهدر المدرسي، والآن هو يقضي على من بنيت المدرسة من أجلهم

وكذلك هنا ذلك البرلمان الذي يمثل الشعب.

رأيتها تقف في زاوية، مسكتها من يدها وأخرجتها إلى الخارج، أفلتن يدها

وقالت لي : من أنت؟

أجبتها: بيدي : صفعتها صفعة قوية.

وسألتها ، هل تذكرتي من أنا؟

ـ بدأت تبكي وتقول: أنا مدمنة على الخمر ولا يمكنني أن أتغير.

ـقلت لها : ستذهبين معي للمنزل.

وصلنا إلى المنزل وسألتها، لماذا لا تريدين أن تحاولي أن تتغيري؟

ـ أجابت، لقد فات الأوان، لقد عصيت الله بما يكفي.

ـقلت لها : باب التوبة مفتوح في كل وقت، والآن سأحكي لكِ قصة.

ـقالت لي : ليس هناك أحسن من قصتي.

ـقلت لها : اصمتي واسمعي.

ـكانت هناك امرأة أعرابية تعرف بالغامدية، تزني ويطرب في أحشائها جنين من الزنا ، فيأبى عليها ضميرها المؤمن وقد ارتكبت الفاحشة سرا إلا أن تتطهر منها جهرا، وجاءت إلى رسول الله ﷺ تقول له: إني قد زنيت فطهرني ـــفيردها الرسول ـــفتأتي في الغد فتقول : يارسول الله لم تردني ؟ لعلك تردني كما رددت ماعزا ـ والله إني لحبلى ـ فيقول لها: "أما لا ـــفاذهبي حتى تلدي" وتذهب المرأة تنتظر الوضع، وتمضي عليها الأيام والأشهر دون انخفاض، تخبو جذوة ضميرها ، فما إن ولدت حتى أتت بالصبي في خرقة وقالت للرسول :

ها قد ولدته ، قال لها: "فاذهبي فأرضعيه حتى تفطميه "

وتعود المرأة إلى دارها ترضع ولدها، وتمضي مدة الرضاع، وهي في الشرع حولان كاملان، أربعة وعشرون شهرا، لم يستطيع اختلاف الليل والنهار أن ينسي المرأة ما ارتكبت من خطيئة .

وبغير إعلان من محكمة ولا تنبيه من حاكم ، ولا حراسة من شرطي ترجع المرأة إلى رسول الله طائعة مختارة لتلقى مصيرها الذي رضيته لنفسها، فتقدم إليه الصبي وفي يده كسرةٍ من الخبز ، وتقول :هذا يانبي الله قد فطمته ، وقد أكل الطعام . ولم يجد النبي بدا بعد هذا أن أمر بها ، فحفر لها إلى صدرها ، وأمر الناس فرجموها ، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضخ الدم على وجه خالد ، فسبها....فسمع نبي الله سبه إياها...فقال:مهلا ياخالد ، فو الذي نفسي بيده ، لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت توبة أفضل من أن جاءت بنفسها لله تعالى"

ـ والآن أختاه، تأملي هذه القصة.

ـقالت لي : هل يغفر الله لي، لقد كثرت ذنوبي ؟ هل يمكنك أن تعلمني كيفية الوضوء والصلاة؟

ـأجبتها، هكذا أريدك، بدأت أشرح لها بطريقة نظرية شفهياً، ولكنها لم تستوعب الوضوء.

قالت لي : هل بإمكانك أن تشرح لي ما تقوله تطبيقيًا، بأن أتوضأ أمامك، إذا أخطأت صحح لي؟

قلت لها : لايمكن هذا، ولكن غداً إن شاء الله سآخذك إلى زوجة صديق لي تشرح لك بطريقة مباشرة تتعلمين منها الوضوء.

وفي الصباح استيقظت، تناولت الفطور الذي أعدته.

ذهبنا إلى زوجة صديقي حنان، وكانت المفجأة أني صادفت هناك سارة بنت تهام،ي الفتاة التي رفضت الزواج بها قبل ثلاث سنوات، الفتاة التي لا تحب الرفض أبداً، تريد كل ما ترغب فيه، أعتقد بأنها حصلت على كل ما أرادته من هذه الحياة إلا أنا، تكلمت مع زوجة صديقي عن الموضوع، وافقت.

قالت لي سارة: هل تسمح لي بدقيقة من وقتك على انفراد، أريدك في موضوع شخصي.

ـقلت لها :لا، ليس هناك أشياء خاصة نتشاركها.

ـقالت زوجة أخي: سنذهب نحن وأنتم أكملا حديثكم.

ـ قالت لي: أريدك أن تعرف بأني أحببتك أكثر مما ينبغي.

ولم أتعلق بشخص غيرك، وبعد أن رفضتني، جرحت مشاعري وكرامتي وكرامة عائلتي، وكل من كان يريد الزواج بي يوما كذلك ذهب.

الكل نظر إلي نظرة سوء.

ـوالآن أريد أن أجعل أبي يفتخر بي، وأصنع اسماً لنفسي.

ـ لقد أصبحت رئيسة للحزب، وحزبي يشارك في الانتخابات، وأريد أن نتروج للحملة الانتخابية، أنت إمام، والناس تسمع لكلامك، وكذلك لديك أصدقاء يشتغلون في مناصب مهمة وتؤثر في المجتمع، لذا أستعين بهم، وسأدفع لك

ـ قلت لها: ابحثي عن غيري، أنا لا أبيع ضميري.

قالت لي : إذا لم توافق على ما أقوله أعدك بأنك ستعاني.

ـقلت لها : لا أنتِ ولا حزبك ولا أي مخلوق سيجعلني أندم في هذه الحياة

قالت لي : أنت رفضتني من أجل عاهرة.

قلت لها : لا، ولكن أنتِ عاهرة من نوع ثانٍ، عاهرة بفكرك، بتكبرك

قالت لي : على أي أساس تسكن معك هذه العاهرة؟

سأجعل منك أسوأ إمام عرفه التاريخ، ستفقد عملك وكرامتك واحترامك، كل شيء، إلا إذا تزوجتها، وهذا ما أريده.

قلت لها : تسكن معي على أساس أخت لي، على أساس ابنتي، وإذا اقتضى الأمر أتزوج بها.

أنتِ تريدين أن تثبتي للناس بأنكِ مثالية، وأنا فشلت في الاختيار، رفضتك من أجل عاهرة.

ـقالت لي : هذا ما أريده.

قلت لها : عاهرة أشرف لي وأحسن من زوجة مثلك، وكلام الناس لا يهمني،

للتوضيح الناس ستقول تزوج عاهرة بدلا منها، ياترى إلى أي؟

وقبل أن أكمل كلام قاطعتني، هل نذهب الآن، كانت البسمة على وجهها لأنها تعلمت كيف تتوضأ.

ـ خرجنا، وفي الطريق أراد لص أن يسرقني فاكتشفت ذلك، ولكي يتفادى الإحراج

ـقال لي : أخي الكريم صدقة في سبيل الله، فأعطيته

ـقالت لي: لماذا أعطيته المال، لقد حاول سرقتك؟ كان يجب أن تلقنه درساً ، انظر إليه، لايخجل من نفسه، يسرق في هذا العمر، ويتوسل للناس وهو قادر على العمل والكسب بعرق جبينه.

ـ قلتَ لها : اصمتي، كيف ألقنه درساً أو أقوم بإحراجه وهو يسرق من أجل لقمة العيش؟ نحاسبه ولا نحاسب اللصوص الحقيقيون، يتوسل لأنه لم يجد عملا، ليس هو وحده، مع الأسف أغلب الشباب في أوطاننا العربية.

ـقلت لها : أنتِ لماذا لا تشتغلين عملا شريفاً ، اتجهتي للدعارة؟

قالت لي بخجل: لم أدرس، ولم أجد أي عمل إلا الدعارة.

ـقلتَ لها : هذه حالة كل بلاد العرب، شباب على زوارق الموت بأحلام وردية للضفات الأخرى، قاصدين لتغيير قدرهم، وفتيات في الملاهي يباعون بأرخص الأثمان.

ـقالت لي : إلى متى سنعيش هكذا؟ وهل سيتغير الحال يوماً؟

– قلت لها : يوما نتغير نحن أنا وأنتِ وسارة وهم، والأمل موجود

ـ وصلنا إلى البيت، دخلت هي، وأنا اتجهت إلى المسجد لصلاة الظهر، وجدت الناس مجتمعين.

قلت لهم السلام عليكم، قليل من رد السلام

قلت لهم ما الأمر؟

ـأجاب العم عبدالباسط الزوين : لانريدك أن تكون إماما علينا من اليوم، لقد جعلت الكل يضحك علينا، نصلي وراء إمام ...

ـ قلت له: أكمل كلامك، عن ماذا تتكلم ؟

ـقال لي : أنت تعرف، لاتمثل علينا دور البريء، تعيش مع عاهرة، أنت فاسق وزاني و--و....

ـقلت لهم : سأشرح لكم بعد الصلاة وسيكون آخر يوم لي، انتهينا من الصلاة، قبل أن أتحدث هاجمني، اشرح لنا أيها الإمام

قلت لهم : قبل عدة أيام كان حفل زفاف ابن العم، ذهبت إلى هذا الحفل، كانت موسيقى وراقصات، إلى غيرها من الأمور الموجوده في المجتمع.

ـوالسؤال موَجه لكم، من يرضى أن يرى ابنته راقصة؟

افترضنا ابنتكم هي التي كانت في تلك الحفلة.

ـقال لي: أنت تتهرب من الموضوع.

قلت له : هل ترضى لابنتك هذا؟

ـأجاب :بخجل لا

قلت له : ترضى لبنات غيرك ولا ترضاها لبنتك، وأقول هذا الكلام لكم أيضاً

ـوالآن سأشرح لكم، هذه الفتاة صادفتها في طريقي، ولعلها حكمة الله سبحانه وتعالى لكي أكون سبباً في هدايتها

ـقاطعني العم عبدالعال: لا تكمل شرحك وهو يبكي، سامحنا، لقد أسأنا الظن بك بسببها، لقد لعبت بعقولنا.

ـقلت له : من التي لعبت بعقولكم ؟

ـ أجاب :سارة بن تهامي.

ـقلت له : لا عليكم، نحن جيران ومسلمون، لذا سننسى ما حدث.

ـ خرجت من المسجد واتجهت إلى بيتي، وجدتها أعدت الطعام وكل شيء مرتب في مكانه.

ـ تناولنا الطعام، دخلت إلى إحدى الغرف لأخد قيلولة، ولم أعرف كم غفوت، سمعت صراخها وتكسيرها للأشياء.

ـ خرجت مسرعا وجدتها تحمل في يديها مزهرية كانت غالية على قلبي لأنها هدية مميزة حصلت عليها بعد نجاحِ في البكالوريا.

ـ صرخت في وجهها قائلا: أنزليها مكانها وإلا.

ـ نزلتها ببطء

اقتربت منها، كان وجهها شاحبا وعينيها لا تكاد تستطيع فتحها

ـقالت لي : لا أستطيع أن أكمل أشعر بالاختناق.

ـ قلت لها : لا، لن تستسلمي، ولن أدعك تفعلي هذا، لقد اقتربنا.

ـ أخذتها إلى المستشفى، دخلت وأنا بقيت أنتظرها، وكان شخص يجلس أمامِي وهو يبتسم، وأنا في هذه اللحظة لا أعرف لماذا أشعر هكذا؟

ـقال لي : لا تخاف، إنها أعراض الحمل ياصديقي، أتمنى لو كنت متزوجا الآن.

ـ قلت له : ما الأمر؟ تزوج إذا كانت كل الظروف متوفرة.

قال لي : الحمدلله كل شيء متوفر، لديَّ شركة خاصة بي، منزل، سيارة.

ـ قلت له مازحاً: أُقصد بيتها وقل لها ذلك.

ـقال لي: الأمر يبدو لك سهل بالكلام، أنا أتعذب هنا كل يوم.

ـقلت له : الحلال سهل لمن يبحث عنه، وماذا تفعل هنا كل يوم؟ إن شاء الله بخير؟

ـقال لي: أنا بخير، والحمد لله لا أُعَاني من شيء إلا من حبها

ـقلت له : إذا كنت تحبها وتريد الزواج بها على سنة الله ورسوله اذهب لها وكلمها، أما إذا كنت تريد حب هذه الأيام، أنصحك بالابتعاد من أمامي.

ـقال لي : لا، لست من ذلك النوع، ولكن لا أستطيع الكلام أمامها، إنها قنبلة موقوتة.

ـقلت له : ابتعد عن القنابل، لقد دمرت بيوت إخوانِنا المسلمين في العراق وسوريا واليمن وغيرها، ولا نعرف من المسؤول بعد عن هذا الدمار، الكل يحمل المسؤولية لغيره.

ـقال لي : اللهم فرج عنهم، ولكن قصدت شيئًا آخر، يعني وصفتها بالقنبلة كتعبير مجازي.

ـقلت له :ماذا تعرف عنها؟ أريد بعض المعلومات كي أساعدك.

ـقال لي باستغراب:أنت تساعدني؟ كيف؟ لقد حاولت الكلام معها ولم تعطني الوقت.

ـقلت له : أنا أتكلم معها ومع ملايين ومليارات مثلها وأحسن، أنت تملك بعض الأشياء وتفتقد لأخرى، هذا شيء عادي.

ـقال لي: موافق، ولكن ماذا إذا؟

ـقلت له : إلى ماذا تلمح، تكلم؟

ـقال لي : كما نعرف، قد تعجبك الفتاة وتأخدها لنفسك كما فعل الكثيرون هذا

ـقلت له : فليطمئن قلبك، هذه ليست موجودة في قاموسِي.

قال لي: إنها جميلة، شعرها أشقر، وجهها أبيض، عيناها ماذا أقول عنهم؟!

قلت له : هل تكتب إنشاء أطفال الابتدائي؟ لم أقصد هذه المعلومات، قصدت اسمها وغيرها.

ـأخذت اسمها وبعض المعلومات، ودخلت إلى مكتبها.

ـ وقفت باستغراب، قالت لي: من سمح لك بالدخول؟

ـقلت لها : الحلال دكتورة أمينة.

ـقالت لي وكيف عرفت اسمي؟

ـقلت لها : مكتوب على تلك اللوحة على مكتبك، وهذا لا يعني بأنكِ غبية

ـ قالت لي: هل تتحدق معي، ماذا تريد ؟

ـقلت لها : أُريد الكلام معك في موضوع مهم.

ـ قالت لي : أي موضوع، هل يتعلق بزوجتك؟

ـ قلت لها : يتعلق بكِ، أريد أن أخطبك على سنة الله ورسوله.

ـ قاطعتني، أنت متزوج، أليس كذلك؟ وتريد الزواج بي!

ـ قلت لها : الشرع أعطانا الحق في أربعة، وقبل أن توافق، لا أريدك لنفسي وإنما لصديق لي.

ـ قالت لي: آه كم أحزنني هذا يا، آسفة.

ـ قلت لها: اسمك أمينة ناجم، وراتبك جيد، هل تقبلين فكرة الزواج لنتكلم في الشروط وغيرها من الأمور، وإذا كانت لديك مخططات أخرى أو هناك شخص معين نتمنى لك التوفيق، ونقصد أمينة أخرى.

ـ قالت لي : هل أنا جميلة كما يقول الكل أم لا؟

قلت لها : هل موافقة لكي نحدد موعد نتحدث به مع أهلك؟

ـ قالت لي : كيف تتكلم معي هكذا بثقة بدون تردد أو عرق، كل من يتحدث معي لا أفهم كل ما يقوله؟!

ـ قلت لها : من يريد الزواج بكِ يقول بأنكِ قنبلة.. وأنا لا أفهم في هذه الأشياء ولا أنظر إلى المرآة، هل هي قنبلة أو صاروخ .

ـ قالت لي : لو أنت كنت ترغب بالزواج بي لوافقت بدون تردد، لذهبت معك الآن لننتهي من كل الأمور، ولكن هذا الشخص لا أعرفه إذا تزوجته، هل سينجح هذا الزواج؟

ـ إذا تزوجته وبعد شهور أو عام وطلقني هل ستتزوج بي أنتَ ؟

قلت لها: فلنأمل الخير، نتحدث في هذه الأمور إذا اتفقتُم مع بعض، ندعُ لكم بالخير والبركة، إذا لم تتفقوا مع بعض، كلُ في طريقه.

ـقالت لي : محظوظة من تزوجت بك.

ـقلت لها: لست متزوج بعد.

ـقالت لي وهي تضحك: هذا جيد، هل سبق أن قامت امرأة بالتقدم لخطبة رجل ما؟

ـقلت لها : نعم، خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها تقدمت لخطبة الرسول ﷺ

ـقالت لي: هل من يريد الزواج بي موجود هنا ؟

ـقلت لها ينتظر في الخارج.

ـ خرجت وبقيت أفكر لماذا سألتني تلك الأسئلة؟ قلت في نفسي إنه شخص محظوظ، سيتزوج بها.

ـقاطعت تفكيري ، والآن لنكمل حديثنا.

ـ قلت لها: إذا كان شيء يجب التحدث فيه، فليدخل المعني بالأمر، وفي هذه اللحظة دق أحدهم في الباب، توقعت أن يكون هو ولكن عندما فتحت الباب كانت سارة تلك المجنونة، هل تراقبني؟

ـ قالت لي أمينة:هذه صديقتي لقد رفضها قبل سنتين، غبي لأنه لم يعرف قيمتها.

ـكنت أردد في نفسي، لو تزوجتها كنت سأكون حمارا وليس غبيا فقط.

قالت لي : هل هناك شخص يرفض مثل هذه الوردة!؟

قلت لها : لا أعرف بالنسبة لها، ولكن أنتِ أكيد لن يرفضك أي شخص.

ـاقتربت سارة مني وهمست في أذني: تجيد الغزل أيها الإمام.!

ـقلت لها: أُجيد كل شيء إلا أن أقوم بتعمير رؤوس الناس بالكلام التافه.

قالت لي : أيها الإمام، أريد الزواج بك، فلننسى كل ما حدث.

ـقلت لها : فكرة الزواج ليست من أولوياتي، وأتمنى لكِ من يستحقك، والآن نهارك سعيد، وفي هذه اللحظة جاءت تناديني، الطبيب يطلبك، ذهبت إليه، دخلت، سألته عن وضعها؟

قال لي : مع الأسف حالتها خطيرة، ولكن يمكنها أن تتجاوزها بإذن الله، ولكن عليها أن لا تتعرض للضغوطات أو أي شيء يعكر مجازها لكي لا تتعاطى ذلك السم الذي قضى على شبابنا وأطفالنا مع الأسف، للتوضيح قد تتعرض لهلواسات أو نسيان أو قول كلام، ولكن عليك الصبر وفهمها لأنها ليست في وعيها.

قلت له : هل هناك أمل في أن ترجع إلى طبيعتها؟

أجاب : نعم، ولكن سأكتب لها دواء، ولكن هذا الدواء لديه أعراض سلبية قد تصبح مدمنة عليه، لذا بعد فترة فصيرة يجب ألا تدعها تشربه وستكون أفضل مما كانت.

قلت له : سأفعل ما تقول، وبعد فترة سأرجع لزيارتك إن شاء الله

قال لي: هل من الممكن أن أعرف صلة القرابة التي تجمعك بها أيها الإمام؟

قلت له : أنت طبيب ولست صحفيًا أو محققًا، لذا التزم بعملك أفضل.

ـأجاب : معك حق، لقد أخبرتني بكل شيء، وأنا فعلا أقدر ما تقوم به، جزاك الله خيراً.

ـخرجت من المستشفى بعد أن أكملت الاجراءات، ذهبت إلى إحدى الصيدليات لشراء الدواء

ـطلبت من إحدى العاملات، فبعد أن رأت اسم الدواء تعجبت ونظرت إلي نظرة سوء كأني ارتكبت جرمًا عظيما!!

ـقالت لي : هذه الدنيا غريبة، لا تبدو من هذا النوع!

ـقلت لها : لا، لست كذلك، وعقلك الغبي لم يفكر بأني أشتري الدواء لغيري

قالت لي : اسمي زينب دراري، والأغبياء لا يشتغلون في هذا المجال يا هذا.

قلت لها : لا أعتقد بأنكِ حصلت على الوظيفة على حساب مؤهلاتك العقلية يازينب دار داري، عفواً دراري، فأنتِ ما شاء الله عليكِ جميلة وتعرفين كيف تتكلمين، وشعرك منتشر في المكان، ولباسك مرتب، وخصوصاً أزرار قميصك.

ـ قالت لي وهي قد احمرت خجلا:

تفضل طلبيتك، وأنا أعتذر على التدخل فيما لا يعنيني.

ـأخذت الدواء واعتذرت لها لما قلته من كلام قاسٍ، وهي مازلت في العشرينيات من عمرها، وأغلب فتيات هذا الجيل يحببن إظهار مفاتن جسدهن، ربما هي موضة العصر، أو للفت الانتباه، أو لاقتناص ---ولكن لماذا تفعل هكذا؟

هي جميلة من عند الله سبحانه وتعالى، لا تحتاج إلى تلك الحركات، قاطعت تفكيري، لقد انتظرتك طويلا سيدي الإمام، هل كنت تصنع هذا الدواء أم أحببت جو الصيدلية؟ وأكملت قائلة: كنت أمزح معك ....تعلمت الكثير وأنا برفقتك في بيتك، فقد مر أسبوع أو أكثر على تواجدنا معًا، لهذا أنت شخص طيب وتثبت ذلك يوماً بعد يوم، ولكن.. لماذا أنت معقد من الفتيات أيها الإمام؟

ـهل يستحق الأمر أن نتجاوز الخطوط الحمراء للمس خصرهم

؟.....يا أختاه

فلتعلمي بأن الدنيا رخيصة أمام الآخرة.... والعمل في الدنيا تذكرة للآخرة....قد أستمتع بشهوة زائلة وتنتهي، ولكن ثمنها يا أختاه الله يعلم عقابه

قالت لي : ماذا قال لك الطبيب عن حالتي؟

أجابتها : أي طبيب؟

ـالطبيب عبد العزيز محفوظ، هل هناك شيء يدعوا للقلق؟ أخبرني، لقد واجهت أسوأ ما يمكن في هذه الحياة.

ـقلت لها : لا، ليس هكذا، لقد نسيت، والنسيان من علامات الإنسان، الحمدلله أنتِ في أحسن ما يكون.

قالت لي: هناك شيء يشغل تفكيري، بعض الفتيات يلبسن لبساً، وهناك أخريات لبساً، ماذا تقول في هذا؟

قلت لها:كم أحترم تلك الفتاة؟

المحتشمة التي كلما مرت بين زحمة شباب خروا رؤوسهم خجلا لعفتها !

كم أحترم تلك الفتاة.

ـفمساء الحب والجمال.....على عاشقة معشوقة للحياء تركت كل اللهو واللغو.... محبة للخير، صادقة القول، صافية الأخلاق، نقية القلب... فتاة مسلمة، محافظة على نظافة عقلها، رائعة بحجابها.

فخورة بإسلامها، تعيش وفق أحكام دينها، أخذت أمهاتنا وزوجات الصحابة قدوة لها ...أقول لها أحسنتِ بارك الله فيك.

ـأما النوع الثاني إن شاء الله خيراً .

(اللهم اهدي فتيات المسلمين، وارحمهم برحمتك يا أرحم الراحمين،وثبت قلوبهم على الإيمان ....)

ـوصلنا إلى البيت فكانت المفاجأة مثل كل مرة منذ أن تعرفت عليها في تلك الليلة، امرأة في الأربعين من عمرها، ما إن لمحتني حتى أسرعت بخطوات متسارعة لتعانقني، وبعد هذا العناق صفعتها، لم أفهم شيئاً، تُرى من تكون؟

ـقبل أن أسألها من تكون فاجأني العم عبد الله ابن سعيد بهوش، نعم اسمه طويل مثل عمره، إنه رجل تجاوز الستين من عمره، أكل الشيب رأسه، ولكنه مازال يملك أملا في هذه الحياة التي فقد الأمل منها الشباب.

ـ سألته؟ خيرا عماه، بماذا أستطيع خدمتك؟

ـ أجابني، كما تعلم ياولدي لم يكتب لنا نصيب في العلم ، ولدي بعض الأوراق، لا أعرف ما المكتوب فيها، لذا قصدتك والقصد لله سبحانه وتعالى، تفضل هذه هي.

ـأخذتها، وبعد النظر فيها وجدتها عبارة عن استدعاء، ومكتوب بعض اللوازم كنسخة الهوية ----الخ

ـقلت له: يا عم، هل قدمت طلب للاستفادة من تعويض على محل تجاري؟ مكتوب هنا خطأ في الاسم، وعليك الذهاب للمقاطعة لتصحيح هذا الخطأ.

ـقال لي: لقد اشتريت هذا المحل من زمان، كان مازال البناء فيه، وقبل إكمال البناء صدر قرار بهدمه وتحويله لمكان آخر، وحدث بالفعل هذا، تم بناء سوق آخر ولكن قامت الدولة بطرد كل الفراشة بالمدينة والبائعين المتجولين وتعويضهم بمحلات تجارية، المشكلة أن هذه المحلات لأُناس آخرين وأنا واحد منهم، لقد دفعت مال تعب سنين، والآن لم يتم تعويض الكثيرون من الناس، سبق أن دفعنا المبلغ المطلوب، وبعد طول الانتظار والنزول إلى المقاطعة والذهاب هنا وهناك تخرج مشكلة جديدة.

ـقلت له: إن شاء الله خيراً، وسأذهب معك لتحل هذه المشكلة الصغيرة

ـدخلنا المقاطعة، وقفنا في طابور الانتظار، ولكن ما لفت انتباهي، جاء شخص ودخل دون أي احترام، تجاوز كل الموجودين..!!

ـسألت أحد الموظفين عن أمره، فكانت الإجابة المعروفة والتي تسير بها الأمور في أوطاننا العربية، إنه الحج زرايبي أحمد ياسين، ولم يذهب للحج يوما، لا أعرف لماذا هذه المسميات في غير محلها.؟!

بغض النظر عن أي شيء نحن أبناء تسعة شهور، ولا أحد أكثر من الآخر، وبعد فترة مبالغ فيها قضاء وقت طويل بدأ الكل بالصراخ والتضيق

ـدخلت دون أي إذن، وجدت هذا التافه يتحدث عن عطلة الأسبوع الذي ذهب للصيد فيها، ومغامراته ومباريات الكرة، والناس تنتظر في الخارج كل ومشاكله.

ـما كان من ذلك المسؤول إلا أن طلب مني الخروج حتى يحين دوري، بعد أن رفضت سألني من أنا؟

-قلت له: إمام المسجيد

ـقال لي: مرحبا أيها الإمام، إذن أنت هو؟ لا عليك، نحن في الخدمة في أي وقت

ـقلت له: ماذا عن هؤلاء الناس، هل هذا هو القانون الذي تدرسونه قبل الالتحاق بالوظيفة، هل هذه العدالة.؟!

ـقال لي: أيها الإمام، القانون مجرد حبر على الورق، وأنا أنظم هذه المؤسسة بالشكل الذي يجعل الأمور على طبيعتها.

ـوبعد جدل طويل معه أنهيت أمور الحج ـ ـولكن هذا بالفعل ذهب لبيت الله الحرام وليس اسم شهرة بين الناس، خرجنا، وجدنا شابا في الثلاثين من عمره متضيق كأن هموم الدنيا فوق رأسه، كان يردد لقد تم رفضي مرة أخرى

ـسألته :عن الأمر، ومما تم رفضه؟

ـأجابني : لقد قدمت الطلب إلى وظيفة الجامعات الترابية، ولكن لم يتم قبولي، بعد سنوات و سنوات من التعب و السهر و االستيقاظ الباكر، و بعد طول انتظار تنهي دراستك بحصولك على شهادة الإجازة و تشعر بفرحة النجاح، و تستمر هذه النشوة أيام معدودة ، لكن سرعان ما تصطدم بواقع كئيب و مخيف، عندما تتذكر و تعود إلى الحاضر، وعندما تقف أمام أمر الواقع، إنه شبح البطالة الذي يهددك و يهدد مستقبل الكثيرون في هذا البلد الجميل ...

فتبدأ تعيش في دوامة من المتاهة و تشتت أفكارك و تتداخل و لا تعرف ماذا تفعل و ما تريد، فتقف عاجزا حائرا مستسلما ... و بعدها تتذكر من سهر معك الليالي من كان لك سندا و عونا من ضحى بالغالي و النفيس ليراك يوما ما أستاذا أو مهندسا أو محاميا ... لكن الآن أنت عاجز و غير قادر على إسعادهم و رد لهم ولو القليل مما قدموه لك

في ظل طغيان المصالح و باك صاحبي للحصول على وظيفة تلبي حاجياتك و تبني بها مستقبلك ، قولوا عني متشائم، قولوا عني ما شئتم فهذه الحقيقة و هذا هو واقعنا، للأسف لا هروب منه، فما باليد حيلة وهذا ما ينتظرك يا صديقي العزيز .

لكن هل ستنتظر الدولة أن توظفك ؟ هل تنتظر أن تحصل على وظيفة ؟ هل ستكون سعيد حقا ؟ أسئلة ما بعدها أسئلة تدور في مخيلة الكثيرون من الذين يحاولون الهروب من هذا الواقع المرير في ظل المستقبل المجهول و الغامض في بلد يعرف تدهورا من جميع النواحي .

-قال له العم: لا تنتظر، لا تضيع وقتك الثمين، استغل وقتك في تعلم مهنة أو حرفة جديدة، وكافح و ثابر، فإذا لم تأتي بالعقل تأتي باليد ، فما أنصحك به ياولدي هو أن تظل شامخا و مفتخرا بنفسك و حتى إن لم تصل، يكفي أنك حاولت و لا تدري متى تهب رياح الخير، فالفرج قادم لا محالة

ـ قلت له : كن عصاميا أو مت وأنت تحاول ! ولا تيأس، هناك الكثيرون مع الأسف، ولكن هذه هي الحياة، ما اسمك الكريم؟

ـ قال لي : اسمي إبراهيم النوالي.

وبعد الحديث الشيق الذي دار بين وبينه حزنت لأجله ولأجل الكثيرون أمثاله، ضاع عمرهم في الدراسة ولكن الواقع يكشف لهم شيئًا جديداً

ـ اتجهت للبيت لأعرف من تلك المرأة، وما غايتها؟

بعد أن وصلت، دخلت، وجدت البيت في حالة حرب، انتهى ذلك العناق والحب، بدأ الأمر بصفعة ولكنه سرعان ما تحول إلى تكسير الأشياء والشتم، وأنا ملزم بالدفع.. نعم إنها ضريبة الخير.

ـحاولت الاستفسار عن الأمر دون الإساءة للضيف لأننا تربينا على احترامه

ـأجابتني المرأة الغريبة : تريد أن تعرف ما المشكلة؟ أنت أساس المشكلة أيها الإمام. ليس بيني وبينك شيء إلا هذه العاهرة، إنها ملكي، أنا من صنعتها، وأريدها أن تعود إلى ما ولدت من أجله.

ـمن أنت، وما الذي ولدت من أجله، وبأي حق تقرر مصيرها؟!

ـاسمي الحاجة فاتحة، وهذه ولذت لتقوم بعملها مثل أي شخص، النجار يقوم بالنجارة وهي عاهرة، عملها معروف .

ـاسمعي هذه أيتها المحترمة. .ما بين الآخرة والدنيا هناك عمل قد يكون صالحا أو طالحاً، ولكن مازالت أمامك فرصة، اقتنصيها لعلها تكون لصالحك وتنفعك، أما هذه ليست ملك، ولا أحد ملك لآخر.

ـلقد وجدتها في الشارع وربيتها من أجل هذا العمل، ولا أعرف لماذا هي الآن معك، بينما الزبائن ينتظرونها، وكذلك كل الفتيات بينما هي معك من أجل التوبة.. يجب أن تعلم أن العاهرة إذا تابت عابت.

ـ هذا الكلام ليس له معنى، باب التوبة مفتوح دائماً، انتِ لاتريدين لها أن تتغير، إذا فعلت ستكون قدوة حسنة لغيرها وستجدين نفسك وحدك وسط أولئك الأوغاذ الذين لا قيمة لهم ولا كرامة، مجرد حشرات في هذا الكون.

ـأيها الإمام، هل لديك عداوة معي، لماذا تريد إفساد عملي، هناك العديد من بيوت الدعارة، لماذا اخترت إحدى بناتي؟!

حتى الدولة لم تتدخل، وأنت حشرت نفسك فيما لا يعنيك.

ـأختاه، ليست لي عداوة معك، ولم أحشر نفسي، كيف لا أتدخل والأمر يعنيني، بما أنني إمام ومن واجبي النصح والإرشاد، هذه مسؤليتي في هذه الدنيا، والحمدلله لقد اقتنعت بكلامي وعرفت الخطأ من الصواب، وبدورك أقول لك لاشك بأنك جمعتِ الكثير، لذا غيري هذا العمل الشنيع.

ـقالت المرأة في غضب : أيها الإمام، إذا كان عليك النصح والإرشاد افعل ذلك يوم الجمعة وليس أن تأخذ إحدى فتياتي لتختلس بها كل هذه الفترة، أنصحك بالابتعاد عنها قبل أن تؤذي نفسك، أنت لا تعرفها من تكون، لا تعرف عنها شيئاً

-أجبتها: لن أتحدث عن والدتها التي تخلت عن عاطفة الأمومة ورمت بها هنا ، ولا عن والدها الذي لا يحمل من الرجولة غير الذكورة التي أتبثها لحظة نزوة عابرة.. سأتحدث عنكِ، ألم يحن الوقت لترجعين إلى طريق التوبة، انظري إلى حالتك، هل هذه حياة؟ لقد ربيتها، ولكن بهذا تصنع الآلاف مثلها.

- ردت بسخرية : لقد تأثرت بكلامك هذا، ولكن كل ما يهمني أن تمشي تجارتي جيداً، لأن كل ما أقوم به عبارة عن تجارة فيها الربح والخسارة، وأنا لا أقبل بهذا،

ولماذا تهتم لأمرها أيها الإمام؟ هل أحببتها؟ إنه الحب من أول نظرة، أم تجدها مثيرة؟ إنها بالفعل كذلك، لهذا أحتاج إليها.

ـ أنتِ لن تفهمي ولن تستوعبي ذلك، سيكون قد فات الأوان، وللتوضيح

ليس الحبُّ أن تحبَّ جميلاً، ولكن الحبَّ أن ترى من تحبُّ جميلاً.

من لا يحبُّ الإنسانَ لم يحبّ الخالقَ.

كلامُ الحبِّ. المخبُأ تحت عباءة الصمت أعظم من كل ما يمكن أن يُقال.

أحياناً قطعة خبز يتقاسمها أصحابها بالحبِّ أفضلُ من كل موائد السلاطين.

لا يوجد في الحبِّ ألوان، إنما هو أبيض وأسود.

الحبُّ يجعل من يديك جناحين تحلق بهما فوق النجوم.

– لقد تعرضت لصدمة عاطفية، لكنني لم أعتقد أن الأمر خطير إلى هذا الحد، ويجب عليك زيارة طبيب نفساني، لقد نجحت هذه المشاغبة في أخذ عقلك من مكانه أيها الإمام.

– على كل حال في هذه الدنيا مسؤوليتنا النصح والإرشاد ، ومع الأسف أنتِ لن تفهمي كلامي.. يمكنك الانصراف من بيتي رغم أنها ليست من شيامي.

خرجت مسرعة وهي تتمتم بكلام ليس مفهوم، أغلقت الباب بقوة ،أخذت كتاب من مكتبتي موضوعه يتمحور حول مدمنين الكحول.

بينما أقرأ هذا الكتاب عن كيفية التخلص من الإدمان، سمعت صوت طرق الباب، ذهبت لفتح الباب لتكون المفاجأة!!

إنه جاري اليهودي، طلبت منه الدخول ولكنه كان مستعجلا، طلب مني أن أحتفظ بعفصافيره لأنه مسافر إلى مدينة أخرى لعدة أيام لحضور مهرجان الهيلولة، إنها طقوس خاصة بهم، أخذت منه قفص العصافير، استدرت، رأيتها كاسفة الوجه.. سألتها، ماذا هناك؟

قالت بصوت مضطرب : أليس أنت إمام مسجد؟

فلت لها : نعم وهذا ليس بالجديد عليك فأنتِ تعيشين معي منذ مدة

ردت بغضب: لا أعرف الخطأ من الصواب، فأنا عاهرة لا أستحق سوى الاحتقار في زمان الذئاب ولكنك إمام مسجد تتكلم مع يهودي، وطلبت منه الدخول إلى بيتك .

قاطعت كلامها : وما العيب إذا تكلمت مع جيراني وهو أحدهم؟

قالت لي : هناك عيب، لأنه يهودي.

– أختاه، أول شيء: لا تعتبري نفسك عاهرة منذ اليوم، ولا تتكلمي بتلك الألفاظ.

وثانيا: إذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يعامل جيرانه بلطف وأخلاق وتواضع..

فلماذا لا نفعل نحن مثله، دعيني أقربك قليلا من خلال هذه القصة.

تعامل النّبي عليه الصّلاة والسّلام مع جيرانه كان منطلقًا من أخلاقه العظيمة الكاملة؛ فقد كان يُحسن إلى جاره ويتفقّده باستمرار، وقد كان للنّبي جارٌ يهودي يؤذيه بوضع القاذورات أمام بيت النّبوة، فحصل أن خرج النّبي الكريم يومًا من بيته فلم يجد شيئًا فاستفقد اليهودي فقام بزيارته، فإذا هو مريض يشكو علّة في جسده، فقال له اليهودي كيف علمت أنّي مريض، فحدّثه النّبي الكريم كيف أستفقد ما كان يجد من أذاه، فاستحى اليهودي من رسول الله عليه الصّلاة والسّلام ونطق الشّهادتين ليموت على الإسلام موحّدًا .

من أخـــــــــلاقيـــات الحبيب المصطفى :

مـــرت جنـــــــازة يهـــــــــودي أمـــــــام نبي الـــــــــرحمة!

فبكـــــــى عليه الصـــــــــــلاة والســـــــــــلام.

فقال له الصحـــــــابة الكـــــــــرام :

ما يبكيك؟

فقـــــــــــال عليه الصلاة والسلام :

{{ نفـــــس أفلـــــتت من يـــــــــدي }}

وهناك المزيد من الأمثلة في سيرة الحبيب المصطفى، وعليكِ أن تعرفي يا أختاه أن الدين الإسلامي يدعوا إلى المحبة والتسامح والسلم والسلام والتعامل مع جميع الأجناس والديانات.

– قالت لي :يا ليتني لم أولد أنثى، أو كنت نسياً منسيا لكي لا تظلمني الأيام .

– لماذا أختاه تقولين هذا الكلام ؟!

– كما تعلم أيها الإمام فأنا عاهرة، لقد عصيت الله بما يكفي كثرت ذنوبي زنيت وشربت الخمر وفعلت الفواحش كل ما ظهر منها وبطن، هل سأدخل الجنة !

أختاه لا ندري بأي شيء سندخل الجنة ؟

ربما بدمعة، بابتسامة، بكلمة طيبة ،بصدقة ، بتلاوة آية ، بتسبيحة أو بسلامة صدر!

لا تحتقرن من المعروف شيئا .

العلم عند الله، من من أهل الجنة ومن من أهل النار ؟

سأتكلم في ما بعد معك بكل التفاصيل في ما يتعلق بالأنثى في الإسلام .

– لا أعرف أيها الإمام، كل ما أعرفه فأنا متعبة ، مرهقة ، مختنقة ، بائسة ، ضعيفة، أنا أحتضر روحيا ...جسدياً ، نفسياً

سائمة من كل شيء، من قبل كنت آخد جرعات من كل أنواع الخمر لكي أنسى، لم أكن أهتم لا بالجنة ولا النار .

بكيت لشدة، نشفت دموعي ولم ينشف عذابي، ف لطفاً بي يالله فأنا لم أعد أستطيع التحمل أيها الإمام.. لقد أصبحت أخشى الموت ،أخاف أن يأخذ اللهّٰ روحي وأنا لم أقوم بواجباتي الدينية على أكمل وجه، وأنا لم أتطهر من ذنوبي بعد.

– عليك بالصبر يا أختاه وحسن الظن بالله، فلا تنسي بأن الله غفور رحيم .

– ماذا أفعل أيها الإمام؟ مازلت متعلقة بالماضي، أتذكر كل أعمالي السيئة التي قمت بها ، حقاً أنا أشعر بالندم حيال ذلك ، أتمنى من اللهّٰ سبحانه وتعالى أن يغفر لي .

– اللهم آمين يا أختاه، كما قلت في الماضي ونحن نعيش في الحاضر، ونتطلع للمستقبل، كل من على هذه الأرض لديه أخطاؤه التي لا يعلمها إلا الله عز وجل.

– ماذا كنت سأفعل بدونك أيها الإمام؟ أشكر الله أنه أرسل شخصا مثلك إلى طريقي، يمسك بيدي ويخرجني من القاذورات، جل من عرفتهم مجرد أشباه رجال، أما أنت فرجل ونعم الرجال .

– أعتز بكلامك هذا في شخصي البسيط ، الحمدالله مازال الخير ، (كما يقول المثل المغربي : مازلت النساء تلد أكيد سيولد رجال ورجال .)

قالت لي : هل يمكنني أن أسألك أيها الإمام ؟

– نعم تفضلي

– ما هو اليوم الأسود بالنسبة لك ؟

قلت لها : اليوم الأسود بالنسبة لي عندما أخرج للخارج وأرى أبناء بلدي للمخدرات يتعاطون، وآخرون عاطلون عن العمل، وعلى الرصيف أطفال ونساء ينامون بلا مظلمة يحتمون ، لا من البرد ولا من الحر ، يصرخون بأعلى صوتهم ولا أحد يستمع لهم.. اليوم الأسود هو أن أرى أخي العربي من وطنه يهرب طوعاً ، لا محباً .. اليوم الأسود هو ما نشاهده في التلفاز ونقرأه في الجرائد عن أطفال سوريا واليمن وفلسطين وغيرهم من الدول ولا نحرك ساكناً.

كل هذه الأيام سوداء ؟

اليوم الأسود عندما أسمع تلك الوعود في الحملات الانتخابية ولا تطبق على الواقع وتبقى مجرد كلمات عابرة من سياسي فاسد وآخر بدون ضمير .

– وأنتِ ما اليوم الأسود بالنسبة لكِ ؟

– مع الأسف ليس هناك يوم محدد، كل أيامي سوداء.

ولكن منذ أن عرفتك تغيرت أحوالي إلى الأحسن، وبدأت أعرف قيمة نفسي كإنسانة ، ولكن يبقى يوم في الذاكرة، يوم تركني أهلي، لا أعرف من المسؤول هل أبي أم أمي آم هما معاً ، لكن لا يهم لقد نسيت الماضي .

– إن شاء الله خيراً أختاه، سأذهب الآن إلى المسجد ،نتكلم عندما أعود .

خرجت إلى المسجد لأداء فريضة الصلاة ، بعد الصلاة عدت إلى البيت مسرعاً لأفسر لها فضل الأنثى في الإسلام وأهميتها ،مثل هذه الأمور يجب أن أشرحها لها بتفصيل .

مع الأسف هذه الأمور يجهلها الكثير من فتيات المسلمين ، حتى بعض الأباء تجد بعضهم إذا ولدت له بنت يتذمر ويتضيق، وإذا رزق بطفل يقيم حفلة وفرحا كبيرا ،

هذه التصرفات كانت موجودة في الجاهلية ، ومرت عليها أكثر من أربعة عشر قرناً ، إلا أنها مازالت موجودة في المجتمع ، وصلت إلى البيت، وجدتها تنتظر عودتي بفارغ الصبر .

– السلام عليكم أختاه

– وعليكم السلام أيها الإمام.

– هل هناك مشكلة لا قدر الله، هل تريدين شيئا ما؟

– قالت : لا، نسيت لقد أتى رجل كبير في السين وزوجته، ومعهم زنجي

– ماذا، زنجي؟

– قصدت رجل أسود، لقد قالوا بأنهم سيعودون فيما بعد.

– ما هذا يا أختاه، لماذا هذه العنصرية؟! على كل حال ذلك العجوز أبي، وزوجته أمي، والرجل الآخر وليام، إنه رجل أفريقي يعيش في القرية مع أبي، لقد جاء من بلده من أجل الهجرة إلى إسبانيا، ولكن الظروف لم تسمح له، حيث كانت زوجته حامل ومكث عند أبي، وبعد عدة محاولات فاشلة قرر البقاء هنا والعمل في الحقل مع أبي

– أعتذر إذا قلت شيئاً خاطئا ولكن كلمة الزنجي عادية.

– يجب أن تعرفين بأن الإسلام حرم العنصرية والتنابز بالألقاب، كنت سأشرح لك فضل الأنثى في الإسلام ، أما الآن سنتكلم على العنصرية لكي لا تقعي في هذا الخطأ مرة أخرى .

أما دينُنا الإسلامي الحنيفُ، فقد حارب العنصريَّة والطبقيَّة بشتَّى أنواعها وأشكالها منذ أن بُعِث النبي صلى الله عليه وسلم، فقد أعلنَها القرآن الكريم صريحةً مدوِّية أن

التفاضل بين البشر لا يكون إلا بميزان التقوى فحسب؛ قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]، والاختلاف في طبيعة الجنس البشري، وتعدد صوره وأشكاله: جعله الله آيةً من آياته في هذا الكون؛ قال سبحانه: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢]، وأكَّد الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا المعنى في أقواله الشريفة، روى أبو داود في سُننه عن أبي هريرةَ رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن اللهَ عز وجل قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهليَّة وفخرَها بالآباء، مؤمنٌ تقيٌّ، وفاجرٌ شقيٌّ، أنتم بنو آدم، وآدمُ من تراب، ليَدَعَنَّ رجالٌ فخرَهم بأقوام إنما هم فَحْمٌ من فَحْم جهنَّمَ، أو ليكونُنَّ أهونَ على الله من الجِعْلان التي تدفع بأنفها النَّتْن))، وروى أبو داود عنْ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ أن رسول اللهَّ صلى اللهَّ عليه وسلم قال: ((ليس منَّا مَن دعا إلى عصبيَّة، وليس منَّا من قاتل على عصبيَّة، وليس منَّا من مات على عصبيَّة))؛ ضعَّفه الألباني.

والذي يتدبَّرُ السيرة النبوية يعلم جيدًا أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم نبَذَ كلَّ فكرٍ فيه العصبيَّة الممقوتة، روى البخاري ومسلم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: كنا في غَزاة فكَسَع رجلٌ من المهاجرين رجلًا من الأنصار (والكَسْع: ضربُ الدُّبرِ باليد أو بالرجل)، فقال الأنصاري: يا للأنصارِ! وقال المهاجري: يا للمهاجرين! فسَمِع ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ((ما بالُ دعوى الجاهليَّة؟!))، قالوا: يا رسولَ الله، كَسَع رجلٌ من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال: ((دَعوها؛ فإنها مُنْتنةٌ)).

لقد كان سعي الإسلام حثيثًا نحو إزالة الفوارق الطبقيَّة بين المجتمع الواحد، وظهر ذلك جليًّا في جملة تشريعاتٍ تهدفُ إلى تحرير العبيدِ، ومنع الرِّقِّ الذي كان منتشرًا بقوة في الجزيرة العربية، وفي غيرها قبل الإسلام، فجعَل عِتْقَ الرِّقاب سببًا في النجاة من النار؛ قال تعالى: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ [البلد: ١١ – ١٣]، روى أحمدُ في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن أعتَقَ رقبة مؤمنةً، أعتق الله بكل إِرْبٍ منها إِرْبًا منه من النار، حتى إنه ليعتِقُ باليدِ اليدَ، وبالرِّجْلِ الرِّجْلَ، وبالفَرْجِ الفَرْجَ))، واهتمَّ التشريع الإسلامي بتحريرِ الرِّقاب، فجعل من كفَّارات الأيمان تحريرَ الرِّقاب، ومن كفَّارات الظِّهار تحريرَ الرِّقاب، ومن كفَّارات القتل الخطأِ تحريرَ الرِّقاب.

ومن خلال السيرة أيضًا نَعلَمُ أن المسلمين تعايشوا مع غيرهم في المدينة المنوَّرة، فعقدوا صلحًا مع اليهود حتى خان اليهود عهدَهم وكتابَهم، وتصالحوا مع نصارى نَجْران، وكان من كبار الصحابةِ مَن لا ينتمي إلى العرب أصلًا، فهذا سلمان (الفارسي)، وصهيب (الرومي)، وبلال (الحبشي)، ونقولُ: رضي الله عنهم أجمعين؛ فالإيمان أزال وأذاب الفوارقَ التي تقومُ على أساس من الجنس أو العِرق أو اللون.

كذلك يعطينا التاريخُ الإسلامي نماذجَ رائعةً تُظهِر عظمةَ الإسلام ومساواته بين أتباعه، دون التحزُّب والميلِ إلى شخصٍ لدينِه أو لمكانتِه في مجتمعه، كان جَبَلَةُ بنُ الأيهم آخرَ أمراء بني غسَّان، وكان حديثَ عهدٍ بالإسلام، وجاء مكة ليَحجَّ أو يعتمرَ، وفي أثناء طوافه بالبيت الحرام وَطِئ إزارَه رجلٌ من بني فَزَارةَ، وغضب الأميرُ الغسَّاني لذلك، فلطَمه لطمةً قاسيةً هَشَمت أنفَه، فأسرع الفزاريُّ إلى أمير المؤمنين عمرَ بنِ

الخطاب رضى الله عنه يشكو إليه ما حلَّ به، فأرسل الفاروق إلى جَبَلة يدعوه إليه، ثم سأله فأقرَّ بما حدث، فقال له عمر: ماذا دعاك يا جَبَلة لأَنْ تظلمَ أخاك هذا، فتهشَم أنفَه؟ فأجاب بأنه قد ترفَّق كثيرًا بهذا البدوي، وأنه لولا حرمةُ البيت الحرام لقَتَلَه، فقال له عمر: لقد أقرَرْتَ، فإما أن تُرضِيَ الرجلَ، وإما أن أقتصَّ له منك.

وزادَت دهشةُ جَبَلة بن الأيهم لكل هذا الذي يجري، وقال: وكيف ذلك وهو سُوقَةٌ وأنا ملِك؟! فقال عمر: إن الإسلام قد سوَّى بينكما، فقال الأمير الغسَّاني: لقد ظَنَنْتُ يا أميرَ المؤمنين أن أكونَ في الإسلام أعزَّ مني في الجاهلية! فقال الفاروق: دَعْ عنك هذا، فإنك إن لم ترضِ الرجلَ اقتصَصْتُ له منك، فقال جَبَلة: إذًا أتنصَّر! فقال عمر: إذا تنصَّرْتَ ضربتُ عنقَك؛ لأنك أسلمت، فإن ارتدَدْتَ قتلتُك.

ولم يُطِقْ جَبَلة أن يُقتَصَّ منه، فما كان منه إلا أن أخَذَ قرارَ الفرار والتنصُّر؛ فخسر دينَه ودنياه.

ولم يكتفِ الإسلام بالمساواة بين أتباعه فحسْبُ، بل كان يُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه حتى ولو كان مخالفًا للدين والملَّة؛ فعن أنس رضي الله عنه أن رجلًا من أهل مصرَ أتى عمرَ بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، عائذٌ بك من الظُّلم، قال: عُذْتَ مُعاذًا، قال: سابقتُ ابنَ عمرِو بن العاص فسبَقْتُه، فجعل يضربُني بالسَّوْطِ ويقول: أنا ابنُ الأكرمين، فكتب عمرُ إلى عمرٍو يأمرُه بالقُدوم، ويقدم بابنه معه، فقَدِمَ، فقال عمر: أين المصريُّ؟ خُذِ السوطَ فاضرِبْ، فجعَلَ يَضرِبُه بالسَّوْط، ويقول عمر: اضرِبِ ابنَ الأكرمين.

قال أنس: فضَرَب، فوالله لقد ضَرَبه ونحن نحبُّ ضربَه، فما أقلَعَ عنه حتى تمنَّيْنا أنه يرفعُ عنه، ثم قال عمر للمصريِّ: ضَعِ السَّوْطَ على صَلْعةِ عمرو. فقال: يا أمير

المؤمنين، إنما ابنُه الذي ضربَني، وقد استَقَدْتُ منه، فقال عمر لعمرو: مُذْ كم تعبَّدْتُم الناسَ وقد ولدَتْهم أمَّهاتُهم أحرارًا؟ قال: يا أمير المؤمنين، لم أَعْلَمْ، ولم يأتِني.

إننا لو استعرضنا أحوالَ المسلمين في عالمنا، لوجدنا العنصريَّة ضدَّهم واضحةً لمجرد أنهم مسلمون، والأحداثُ شاهدة في فلسطين وبورما وميانمار، ومن قبلُ في البُوسنة والهِرْسك، وكُوسوفا وغير ذلك على مرأًى ومسمعٍ من العالم أجمعَ، من المنظَّمات الدولية التي من المفترضِ أنها تكافحُ العنصريَّة، وتقفُ ضدَّ مَن يَنتهِجُ تلك السياسة.

إن الدين الإسلاميَّ – بحقٍّ – أعطى النموذجَ الأسمى، والمَثل الأعلى في مناهضةِ ومكافحة فكرِ العنصريَّة والتعصُّب الأعمى، ولا يضرُّ ذلك أن تَصدُرَ بعض الحوادث المنفردة من فئات قد تَنسبُ نفسَها إلى الإسلام، فتُخرِّبُ وتدمِّر، وتَقتُلُ بغير جريرة، وتُسيء إلى الإسلام في الداخل والخارج، ونتساءل: هل يُؤخَذُ الكلُّ بأفعال البعض؟ إن ذلك لو حدَث لكان الظلمَ البيِّن، فلْيَعِ المتطاولون على الإسلام ونهجِه ذلك، وليتأكدوا أنه لا عنصريَّة ولا تعصُّب أعمى في ديننا الحنيف.

– أنت تتكلم بدون أي معنى ، عن أي إسلام تتكلم ! أي دين هذا !أين هؤلاء المسلمون ؟ هل تراهم في أحلامك ؟ لا أرى أي شيء مما تقول، مع الأسف أيها الإمام لا توجد عدالة عند المسلمين في البلدان العربية سوى القمع بكل أنواعه بعكس أوروبا.

– يا أختاه لو كانت هذه الجدران تستطيع الكلام لتحدثت عن تاريخ المسلمين وعدلهم....

وإليك هذه القصة لكي أقربك أكثر من عدل أمة كانت تخشى الله، تعرف ما عليها وما لها

عند ما تولّى أبو بكر الصّدّيق ـ رضي الله عنه ـ الخلافة قام بتعيين عمر بن الخطاب قاضياً على المدينة..فمكث عمر سنة لم يفتح جلسة ولم يختصم إليه اثنان..فطلب من أبي بكر إعفاءه من القضاء..فقال له أبو بكر:

أمن مشقة القضاء تطلب الإعفاء يا عمر؟

فقال:

لا يا خليفة رسول الله، ولكن لا حاجة لي عند قوم مؤمنين، عرف كل منهم ما له من حق فلم يطلب أكثر من ما له وما عليه من واجب، فلم يُقصِّر في أدائه،

أحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه..

إذا غاب أحدهم تفقدوه

وإذا مرض عادوه

وإذا افتقر أعانوه

وإذا احتاج ساعدوه

وإذا أصيب واسوه..

دينهم النصيحة

وخلقهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

ففيم يختصمون؟

_ أحدهم يدق الباب، على الأغلب أبوك

_ كيف عرفت بأنه أبي؟

_ عندما أتى قبل قليل لم يرن الجرس بل دق بيده على الباب

_ سأذهب أنا لفتح الباب.

_ لحظة أيها الإمام ماذا ستقول لأبيك عني، هل سيتقبل وجودي معك ؟

_ لا عليك، خيراً إن شاء الله أختاه ، أنا أعرف كيف أقنع أبي إذا رفض .

_ فتحت الباب، كل ما كنت أفكر فيه هو ماذا أقول لأبي؟ وكيف أقوم بإقناعه إذا رفض أو انزعج من تصرفي هذا؟ .

_ السلام عليكم ياولدي.

_ وعليكم السلام ورحمة اللهّٰ يا أبي

_ سلمت على أبي وأمي ، لقد مرت شهوراً لم أراهم ، كانت البسمة على وجه أمي واضحة ، هذه البسمة أخفت تجاعيد وجهها ،فهي امرأة تجاوزت الستون من عمرها.

_ سألتها ما سر تلك الابتسامة يا أمي؟

_ أجابت : كيف لا أبتسم وأفرح، وأخيراً تجوزتَّ، لطالماَ حاولت إقناعك وكنت ترفض فكرة الزواج ، في الحقيقة مستاءة قليلا لعدم إخبارنا ، ولكن هذه حياتك ،يمكنك أن تديرها بالشكل الذي تريد.

_ أنا سعيد بحضوركما، تفضلوا، نتكلم في الداخل، أين هو وليام؟

_ قال أبي : سيأتي فيما بعد، لديه عمل ما.

_ أين زوجتك لنتعرف عليها.

_ عليك أن تعرفي يا أمي أن تلك الفتاة ليست زوجتي.

قبل أن أشرح لهم قصتها وأتدارك الموقف وخصوصاً أنهم توقعوا بأني تزوجت، هذا ما يتمنونه في هذه الحياة أن يروا أحفادهم

_ رد أبي غاضباً وبصوت مرتفع : ماذا تقول ياولدي ! كيف ذلك ! هل تمزح معنا ! إذن من هي، وماذا تفعل هنا ؟

_ وجودها معي ربما مشيئة القدر، هذه الفتاة ، لا تربطني بها أية صلة، وجدتها في إحدى الليالي مغمى عليها ، ليس لها أي أحد في هذه الدنيا غيري .

_ أفهم من كلامك ياولدي أنها امرأة أجنبية في بيتك بدون عقد شرعي ولا صلة بينك وبينها ، اختلوت به وأغلقت الأبواب ، منذ متى وهي معك؟

_ حوالي شهر أو أقل يا أبي، ولكن عليك أن تعرف أنا من طلبت منها البقاء، لا ذنب لها في ذلك، من وراء هذه الفتاة قصة طويلة عليك أن تسمعها وبعدها يمكنك الحكم.

_ لا أريد سمع أي شيء، هذا بيتك أيها الإمام ، يمكنك أن تدخل إليه كل من ترغب فيهم، أي نوع من الضيوف حتى الع.....أستغفر الله من قول هذا

_ قاطعت أمي أبي قائلة : لقد بالغت في ردة فعلك، وكلامك القاسي هذا ، أنتَ تعرف ابننا جيداً، لا يمكنه أن يفعل شيئا خاطئاً ، نحن من ربيناه، أيها الإمام عليك أن تستوعب هو ابنك قبل أن يكون إمام مسجد.

_ لا أريد أن أجادلكما طالما مقتنعين بأنكم على صواب، سأذهب، مع السلامة في أمان الله ، والبيت تعرفه عندما تعرف خطأك.

_ انتظر يا أبي، الأمر لا يستحق كل هذا الجدال.

_ لحظة أيها الإمام ، لقد حان وقت رحيلي، لا أريد أن أسبب لك مشاكل بينك وبين أهلك

– أنتِ ستبقي هنا حتى تكملين علاجك ، وأبي سيقتنع بذلك .

_ ياولدي أنت تعرف أباك، سأذهب للتكلم معه

_ لا يا أمي، أنا من سيخرج وراءه

_ سأذهب معك، أنت تعرفه جيداً، يفعل ما في رأسه، لن يسمع لك أو يأخد برأيك.

_ لا أحد سيتدخل بين الأب وابنه، سأذهب إليه وأقنعه بفعلتي هذه ، إذا لم أفعل فأنا لا أستحق أن أكون إمام مسجد.

خرجت مسرعاً، وجدته ثائراً في قمة الغضب، إنه أبي من الجيل الذهبي الذي يأخذ من كل شيء الكثير، الصبر، والغضب.

_ السلام عليكم يا أبي، أتمنى منك أن تستمع لي، بالله عليك لا أريد سوى خمس دقائق من وقتك.

_ ماذا أقول لك ياولدي، إنها فتاة في عقدها العشرين، ذات جسد ممشوق، أخشى عليك من فتنة الشهوات، الشيطان عدو الإنسان، أحياناً يأتي على هيئة ملك، وأحيانا على هيئته الأصلية ، وأحيانا أخرى قد يأتي على هيئة عاهرة .

_ أعلم يا أبي بأنها امرأة أجنبية ، لا يجوز أن نعيش سوياً تحت سقف وحيد ، لكن الغاية تبرر الوسيلة، الله يعلم ما في الصدور ، إنها معي بقصد العلاج من الإدمان والتوبة، وبعدها سترحل ،كما تعرف يا أبي نحن نعيش في بلد أو زمانٍ ، كثُر الأوغاد ، والسفلة في كل زقاق ودرب ، أينما ذهبت تجدهم ، على سبيل المثال هذه المدينة أصبحت مستنقع

للدعارة، أصبح الفاسد والطاغي ،الحياة هنا ليست مثل القرية يا أبتِ، مع الأسف مثل هذه الفتاة فريسة سهلة لهؤلاء القذرين .

_ هل تعرف اسمها؟ أصلها؟ أي شيء عنها؟ قد تكون مصيبة في طريقك ياولدي، الحياة لا تحمي المغفلين أمثالك ،إنك بريء، عاطفي زيادة عن اللزوم.

يا أبي، لا أريد أن أعرف عنها شيئا سوى إنها اختارت طريق التوبة، وبدأت تتغير وهذا ما أريد ، أن تكون نموذج حسن لغيرها، إذا عرفت اسمها فماذا يفرق ذلك سواء ،كانت شيماء أو نسرين أو مريم أو ليلى ،كل ما يهمني أنها فتاة بريئة تم استغلالها ، هناك الكثيرين مثلها ، أما إذا كانت ستأتي مصيبة من وراءها فأنا عند حسن تدبير ربي، سأرضى بقدري كيفما كان .

_ يا بني لا أريد أن أفقدك أو أن أسمع عنك كلام يسيء إلى سمعتك وشرفك، يكفيني أن فقدت أخاك من قبل من وراء عناده ، عليك أن تعرف أن كيدهن عظيم، وهذه الفتاة أستغفر الله من قول هذا، مهمتي كأب أن أنصحك، المرأة عليك أن تتوقع منها كل شيء

إن جنس حواء خبيث، والقرآن يخبرنا بذلك ، والتاريخ حافل .

_ غفر الله لك يا أبي على كل كلمة قلتها في حق المرأة ، تكلمت عن القرآن الكريم والتاريخ ، لنبسط الأمر، الكيد يا أبي لا يعني الجميع ،أي جميع جنس حواء خبيث لو كان كذلك فزوجات الأنبياء والصحابة تشملهم الآية ، وهذا من وجه نظرك أما أنا مَعَاذَ الله أن اقول هذا في حقهن على سبيل المثال هناك نساء جاء القرآن الكريم صريح في حقهن، وهن زوجة النبي لوط ونوح .

جاء القرآن الكريم صريح في حقهن وهن امرأة لوط ونوح، قال تعالى: ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (سورة التحريم، الآيات ١٠) كما تعلم خيانتهم كانت في الرسالة فقط

كثيراً ما نسمع هذه الكلمات بأن النساء كيدهن عظيم وخبيث ، ولا نتكلم على كيد الرجال ، فهم من بدأ ،لننسى كل هذا ، شأن المرأة عند الله عظيم يا أبي هناك الصالح والطالح ، وهذه الأخت اختارت الطريق المستقيم، ومن واجبي مساعدتها .

ياأبي ماذا تريد مني أن أفعل ، هي مدمنة على الخمر، الحمد لله هناك تحسن في حالتها وهي تتابع العلاج ولديها إرادة قوية، هل أسامح فيها في وسط الطريق لترجع إلى تلك الحياة القادرة.

_ ياولدي أنت أدرى بهذا المجتمع، لن يتركوك في حالك

_ لا يهمني أحد، كلام الناس كأوراق الأشجار يتساقط،كل ما أفعله لوجه الله.

_ لقد كبرت يا ولدي، لطالما كنت فخوراً بك، الحمدلله أنك لم تسْتَمِع إليَّ هذه المرة ،كنت سأرتكب خطأ وذنباً عظيما في حق فتاة ضعيفة .

_ إن شاء الله خيراً يا أبي ، لماذا تبكي دموع الأباء لا يجب أن تسقط على الأرض،أخشى يا أبي أن يعاقبني الله على كل دمعة سقطت من عينيك بسببي .

_ لا ياولدي، الحمد لله أنه رزقني ولد صالح مثلك، كل ما في الأمر أنني تذكرت أخاك، مازالت شمعة نار الاشتياق له لم تنطفئ رغم كل هذه السنين، لم أنساه للحظة

وحيدة لسنوات عديدة ، لا أستطيع تحمل فقدانه في تلك الظروف الغامضة كأننا نعيش في غابة ، لقد كبر ابنه وأصبح شاباً .

_ يا أبي الأعمار بيدي الله إذا موته متعمد الأمر لله هو من له الحساب يمهل ولا يهمل .

_ تعالى يابني لنرجع إلى البيت بسرعة، هناك قلوب مجروحة يجب علاجها ، لقد فطرت قلبها في لحظة غضب، علي إصلا ح غلطتي .

الحمدلله لقد اقتنع أبي، عدنا إلى البيت ، وجدت أمي تنتظرني كان الخوف والحيرة واضحة على وجهها ، لقد اختفت تلك الابتسامة ، ركضت نحوي مسرعة، قالت لي : تعالى إنها فوق كانت تريد المغادرة ولم أسمح لها بذلك حتى تأتي .

صعدت إلى فوق كانت في حالة يرثى لها ، لون وجهها تغير بكثرة البكاء ، قبل أن أتفوه بكلمة.

قالت لي :_ كل ما قاله أبوكَ عني صحيح ،أيها الإمام، ولكن عليه أن يعلم أنني لم أختار هذه الحياة، ولم أختار أن أكون عاهرة، ولدت ، بدون أهل لم أجد من يحميني ، مع الوقت وجدت نفسي أبيع جسدي وأشرب الخمر وأدخن، لم أكن أعرف الخطأ من الصواب، وبعبارة أدق لم أكن أعلم الحلال من الحرام ،لقد أخبرتك بهذا من قبل ، مع الأسف الحياة لم تنصفني، لقد أخذت ما يكفي منها سوى الألم والإهانة، لم أعرف معنى السعادة صحيح دائما أظل مبتسمة في كل الأوقات هذه الابتسامة ليست حقيقية، لقد تعلمتها وتدربت عليها لكي أنجز عملي بكل خبرة ودقة، بالله عليك أيها الإمام أخبرني لماذا أنا وحدي حظي هكذا.

_ كل بني آدم على هذه الأرض يا أختاه معرض للابتلاء من الله عز وجل ما عليك سوى الصبر والثقة بالله سبحانه وتعالى

فلتعلمي يا أختاه حتى أنبياء الله ابتلاهم الله وامتحنهم ،لذلك إن الابتلاء ميراث النبوة فمن قلّ حظه من الابتلاء قل حظه من ميراث النبوة

رسالة النبي يعقوب عليه السلام تلخص لنا ذلك حيث جاءت كالتالي : من عبد الله يعقوب ال عزيز مصر يوزرسيف

إن الله سبحانه وتعالى لطالما ابتلى رسله و أنبيائه و ذراريهم وامتحنهم بألوان المصائب و الشدائد، ابتلى جدي إبراهيم بنار سعرها له النمرود، و ساق عمي إسماعيل إلى المذبح موحيا إلى أبيه أن يقدمه قربانا. أما أنا فقد ابتلاني بفراق ولد هو قرة عيني و فلذة كبدي، ذات يوم صحبوه إلى الصحراء ثم رجعوا ومعهم قميصه الملطخ بالدم، وكان لي ولد آخر هو أخو يوسف لأمه، كنت أشم فيه رائحة يوسف، وكان عوض أخيه بلسما لجرح قلبي المفطور، أخذه إخوته معهم إلى حيث أنت، وعادوا من دونه، وقد علمت من الناس أنك استرقيته بجرم السرقة فلا يخالجنك الشك أن ذراري الأنبياء أبعد خلق الله عن السرقة واللصوصية. جل ما أقوله في كتابي هذا أن فراق ولدي يوسف وبنيامين قد أنهك قواي وذهب بنور بصري، أسالك أن تفك قيد ولدي بنيامين وتسرحه إلى أبيه الشيخ العاجز، فتخلصه بذلك من فجيعة الفراق، حينها سأذكرك بكل خير في دعائي و صلواتي، أما إذا أبيت علي ذلك و لم تترحم على ذلك الشيخ فلأصرخنَّ من أعماق قلب كوته نيران الفراق بحيث تحيل ألسنتها ملكك وسبعة أجيال من ذراريك إلى رماد فلا يكون لك قبل بدفعها و مواجهتها.

عبد الله يعقوب.

الابتلاء نعمة من رب العرش العظيم يا أختاه،كل ما يمر به العبد من شدائد ومصائب لمصلحته.

دخل أبي إلى الغرفة التي كنا داخلها وقال لها :

_ هل تقبلين الاعتذار من هذا الشيخ العاجز يا طفلة، على كل ما قلته في حقك في لحظة غضب؟ .

_ لا تقل هذا يا عماه فا أنا أعرف بأنك قلت الصواب، من حقك كأب الخوف على ابنك من أمثالي .

_ لا تقولي هذا الكلام في حق نفسك ، كما قال ولدي كل ما يمر به العبد هو ابتلاء وامتحان ، المهم أنكِ تغيرتِ ونجحتِ، عليك بتفويض أمرك لله عز وجل كما تعلمين ياطفلة حياة الرسل والأنبياء ليست سوى النماذج البشرية السامية لهذا السلوك الابتلائي الحر في التجارب الابتلائية، والمُثل الناجحة، فكل رسول وكل نبي يخوض في مختلف الأنواع من التجارب الابتلائية الممتعة والمؤلمة، شأنه في ذلك شأن البشر أجمعين، علاوةً على أنه يتخصص في نوعٍ معين من الابتلاءات يصبح فيه النموذج والمثال العظيم. وفي هذا تطبيق وتوضيح لقول الرسول بأنهم أشد الناس بلاء.

أما خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم فقد أنزل الله تعالى فيه

{وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل: ٨٩]

وقد تعرض عليه الصلاة والسلام لجميع أنواع الابتلاءات التي يمكن أن يتعرض لها إنسان في هذه الحياة والتي تعرض لها الرسل جميعًا ومن هذه الابتلاءات

- صبره صلى الله عليه وسلم على الاضطهاد والتعذيب والإيذاء والتجويع والسخرية والردود القبيحة عليه والإهانات المتوالية وكل ما أصيب به هو، أصيب به أتباعه والأذى الذى لحق به لحق بأقاربه.

- صبرٌ في مواطن القتال ولعل أبرز مواقفة الصابرة في الحرب موقفه يوم أحد ويوم الخندق.

- وابتُلي النبي صلى الله عليه وسلم بمصيبة الموت في أولاده وأقاربه وأصحابه فصبر فضلًا عن أنه ولد يتيمًا وتوفيت والدته وهو في السادسة من عمره، وابتُلي النبي صلى الله عليه وسلم بالمرض والجوع والفقر فصبر

- كما ابتُلي النبي صلى الله عليه وسلم بالقوة والجاه والسلطان والمتعة والغنى والحكم وسائر مُتع الحياة وقد التزم حيال كل ذلك بالسلوك الخُلقي القويم كنموذجٍ يحتذى به فى كل موقفٍ من مواقف الابتلاء .

_ كلمات أبي هذه كانت كافية لتلخيص كل ما أردت قوله .

هكذا هم الأباء دائماً متفوقون علينا بخطوات ، مع ذلك نصادف في المجتمع بعض الفئة التي لا تعطي قيمة لآبائهم ، وهناك حالة ترى الأب مصدر الإزعاج والسخرية ووجوده إساءة لهم .

سمعت صوت نداء أمي من الأسفل

أجابها أبي :

_ماذا هناك صوتك يصل صداه إلى أخر الشارع

_ انزل إلى هنا لقد وصل وليام .. خرج أبي من الغرفة هممت باللحاق به ، أوقفتني، أمعنت النظر إليَّ جيداً ثم قالت لي والكلمات بالكاد تخرج من فمها كأنها طفلة تعلمت نطق الحروف حديثاً :

أسوء شعور أن تكون مجهول بدون أم ولا أب ، لا أحد مقطوع من الشجرة كما يقولون ، لا أهل لك.. لا أستطيع التحمل ،لسان يعجز عن نطق كلمة أمي ، أليس الجنة تحت أقدام الأمهات؟ ماذا يوجد تحت قدم أمي ،إذا كان الأب السند، ماذا يكون أبي ؟

في هذه الحياة ليس هناك شعور غير الحزن

- تذكر قول الله عز وجل

(واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)

من الصعب العيش بدون أهل في هذه الأرض ولكن الله قد عوضك هأنت ابتعدت عن الحرام ، يكفي أن يكون الله عز وجل رضي عنا يا أختاه لأننا لا نأخد من هذه الدنيا سوى أعمالنا ، في يوم الحساب لا ينفع لا أم ولا أب ولا صديق كل واحد سيحاسب على أعماله وحده ،الله يرى كل شيء، وأنتِ لاذنب لك في ما فعلت أمك .

سأنزل لقد أتى صديقي الإفريقي، اذهب لغسل وجهك ولا تحمل نفسك أكثر من طاقتك ، اترك الحياة لمدبرها .

نزلت إلى الأسفل كان صديقي الإفريقي ، جالس في زوية من زوايا البيت إنه رجل إفريقي كأي رجل إفريقي آخر، أكل الزمان منه ما أكل ، هكذا هي حياة الفقراء في هذه القارة أو العالم ككل .

عندما أحس بوجودي ركض نحوي بسرعة، عانقته، إنه أخي الذي فقدته .

_ كيف أحوالك صديقي الإفريقي؟

_ ربما أكون بخير بينكم يا أخي.

_ قلت له مازحاً : أراك تعلمت العربية أفضل مني .

_ رد ضاحكاً : قليلاً ولكن سأتحسن إلى الأفضل مع الوقت .

_ أكيد ستفعل ياصديقي، تعالى على مائدة الأكل .

طرق أحدهم الباب فنهضت أمي من حيث كانت تجلس ذهبت إلى الباب عادت ومعها يسرى ،قالت وهي تبتسم ويظهر عليها السرور والبهجة : لقد أتت يسرى لزيارتنا... ذهبت يسرى إلى أبي، لا أعرف ماذا كانت تقول له، اجتمعنا على مائدة الطعام ، انتهينا من الأكل، الغريب في الأمر أبي لم يتفوه بكلمة، ظل صامتاً، ليس من عادته ، كذلك يسرى تلك الفتاة الثرثارة صمتها يثير شكوكي، الله يعلم ما تخطط له، بعد هذا الانقطاع الطويل عن الكلام سأستدرجها

لأرى ما تحت رأسها :

_ ما سبب الزيارة المفاجئة أخت يسرى، إن شاء الله خيراً؟

_ أفهم من محتوى كلامك ، كأنك تقول لي الباب من جهة اليمين أيها الإمام .

_ أستغفر الله، لا ليس هكذا، ربما تحتاجين لشيء واستحييت أن تتكلم .

_ ليس هناك شيء، كل ما في الأمر سمعت بوجود العم والعمة هنا فأتيت لزيارتهم .

قلت لها : بارك الله فيك رغم أشغالك، مازال لك وقت لأهلي.

قالت لي : لم أتوقع هكذا سؤال من إمام مسجد!! كما تعلم نحن لنا نفس الدور هو أن نكون قريبين من المواطنين، وهذا أساس وجودنا ، ولن أخفي عنك أنها فترة الحملة الانتخابية، لهذا سأطلب من العم أن يساعدني قليلاً، فأنا أترشح لأول مرة

_ قل لي، ما رأيك يا أبي في هذا؟

_ قال بكل حكمة وصواب : نحن الكبار لا نعرف في السياسة ومَنْ الأحسن لخدمة هذا البلد لدى لنترك الأمر للشباب، أيامنا انتهت .

لطالما صوتنا كل مرة على شخص ، نمشي مثل القطيع إذا صوت فلان على فلان، نحن نصوت كذلك على ذلك الشخص، ولكن ياطفلة سأصوت عليك بما أنها أول تجربة لك، أتمنى لك النجاح، ولكن لن أطلب من جاري التصويت عليك ولا أقاربِ، الكل حر في اختيارته ويتحمل مسؤوليته .

كلمات أبي هذه تحي الأمل لغد أفضل، الكل يعرف واجباته ومسؤولياته من الكبير إلى الصغير .

قالت يسرى وهي تعتدل في وقفتها : معك حق أيها العم، الكل حر في اختيارته، إن شاء الله نكون عند حسن ظن الجميع ، أستأذنكم الرحيل .

قلت لها : إذنك معك، مع السلامة، أتمنى أن تحققي مع عجز عن فعله أسلافك وأخيرهم أباك .

بينما أنا أتكلم مع الأخت يسرى وهي تستعد للخروج رأيته شارد الذهن، غارق في عالمه الخاص ، سألته، أين ذهبت صديقي؟

أجاب : كيف هي الحياة قاسية ياصديقي أن تفقد كل أهلك بين ليلة وضحاها .

_ هذا قدر الله ياصديقي، لن يظل هناك أحد خالدا على هذه الأرض، حتى الأنبياء والرسول لم يسلموا منها، الموت علينا حق

_ يا أخي، طوال عمري والحزن يقف على عتبة باب داري ، عشت طفولةِ في أدغال إفريقيا أهرب من هنا وهناك، قنبلة كانت كفيلة لتدمر كل عائلتي، أمي إخواني، أبي، بيتنا ، أنا لم أفعل شيئاً، كنت شخصا مسالما، كذلك إخوتي، أهلي ، لم أطلب لا الذهب ولا الفضة ولا الألماس ولا منصبا ولا جاها، كل ما كنت أريده حياة بسيطة هادئة .

_ بماذا أجيبك يا أخي!! كلنا نطلب تلك الحياة البسيطة، من يتحمل ما يحدث في هذا العالم، من دمر، ربما نحن من يتحمل هذا، لا نسمع صراخ أطفال سوريا ولا نرى جوع وتهميش أطفال اليمن، وأحوال الشعب العراقي والليبي وغيرهم من الدول التي تتألم ونحن نراقب في صمت، كل هذا يرجع إلى أنانيتنا، الكل يفكر في نفسه، لقد فرقونا عن بعضنا وكسرونا يا أخي كسرونا .

_ معك حق أيها الإمام، ولكن ما باليد حيلة

_ نظر صديقي الإفريقي إلى أبي وقال له :

أيها العم، هل سترجع اليوم ؟ أم ستظل هنا؟.

_ قال له أبي : سأستشير مع الحاجة ، ربما تريد أن نقضي بعض الوقت مع ابنها .

نهض أبي من مكانه وذهب إلى أمي ، أعرف في نفسي بأن أمي سترفض الذهاب معه اليوم ، إذا وافقت للعودة معه، بعني بأنها لم ترد كسر كلامه ، ما هي إلا لحظة ويرجع أبي إلينا يحمل خبر عدم العودة والبقاء معي لأيام أخرى.

_ سألت أبي مازحاً إياه : لقد تغير الزمان يا أبي وأصبح الحكم للنساء .

_ أجابني ضاحكاً : لا، لم يتغير شيء بالنسبة لنا نحن أصحاب الجيل الذهبي ، كانت علاقتنا قائمة على التفاهم والحب والمودة والرحمة ومازالت ، لم تكن علاقتنا قائمة على السلطة ومن يتحكم في الآخر، رغبة الأم البقاء مع ابنها ، كيف لي بمنعها؟ كما تريد مساعدة هذه الفتاة في أمر ما.

_ قال صديقي الإفريقي لأبي : يجب أن أرجع اليوم، كما تعلم زوجتي وحدها في البيت.

_ نعم عليك الذهاب ولكن بعدما سنشتري بعض الأغراض

_ قال لي أبي : هل حي الروضة قريب من هنا؟

_ نعم إنه ليس بالبعيد من هنا، لماذا ؟

_ سأذهب لزيارة صديقي الحاج عبدالقادر الجزائري، لقد انتقل من وجدة للعيش هنا.

_ إن شاء الله بعد صلاة العصر نذهب

_ لا، ليس لنا شيء الآن، سنذهب

_ كما تريد أبي، سآخدك إلى هناك وأرجع، كما تعرف يجب أن أكون موجوداً في المسجيد لتأدية فريضة الصلاة.

_ مازال الوقت للذهاب إلى الجزائر العاصمة والعودة، وليس حي الروضة ، كما قلت قريب من هنا

_ نعم يا أبي سأذهب إلى أمي لأسألها إذا كانت تريد شيئا ما وبعدها نذهب .

_ لا، اتجه صوب الباب، أمك لن تحتاج منك شيء عندما أكون موجودا .

لم أرد على أبي، اكتفيت بالصمت ، خرجنا، توقفت بجانب الرصيف لانتظار سيارة أجرة.

_ قال لي أبي : لماذ توقفت، هل تحس بالتعب؟

_ قلت له : لا أبي، أنتظر سيارة أجرة

_ سنذهب مشياً على الأقدام.

بعد نصف ساعة تقريباً من المشي ، وصلنا إلى حي الروضة

ذهب أبي ليسأل عن بيته ، الغريب لا أحد يعرف بشحص جزائري يسكن هنا! لا الكبير ولا الصغير ، الكل يجيب بالنفي .

_ سألت أبي : هل لديك رقم هاتفه ؟

_ أجابني : كم أنت غبي، لو كان عندي رقمه ما كنت أحضرتك معي .

بعد هذا الموقف والظهور الذي ظهرت به ، هو فعلا سؤال غبي ، اقترحت على أبي أن نتوجه لأقرب دكان ونستفسر عن الأمر.

دخل أبي إلى أحد الدكاكين وأنا خلفه.. سأل أبي صاحب الدكان نفس السؤال الذي وجهناه للكثيرون ،على أمل أن يكون لديه معلومات أو يعرف أين بيته ، لكنه أجاب بالنفي هو الآخر ، وحكى لنا أنه يعيش هنا منذ أكثر من ٤٠ سنة، ولا يعرف أي شخص من الجزائر يسكن هنا .

اقتربت منه وسألته هل يعرف رجل كبير في العمر يسكن هنا اسمه عبد القادر؟

_ أجابني بتوتر وخوف : نعم أعرف الكثيوين هنا بهذا الاسم، ولكن من أنتم؟ ولماذا علي مساعدتكم؟ .

_ لا تُسيء فهمنا، لا ننتمي إلى أي جهة رسمية ، أنا إمام مسجد، وهذا أبي، والرجل الواقف خارج المحل صديقي، كل ما في الأمر يا أخي نبحث عن صديق لأبي اسمه عبد القادر من الجزائر صديق لأبي من زمان ، يمكنك الوثوق بما أقول أو لا، على كل حال جزاك الله خيراً .

_ نعم كما قلت هنا الكثيرون بهذا الاسم، ربما الذي تبحثون عنه عبد القادر من مدينة وجدة وليس الجزائر ، لقد انتقل إلى هنا من فترة .

_ قلت له : نعم هو الذي نبحث عنه، هل تعرف عنوانه؟

_ قال لي: إنه يسكن قريبا من هنا في أسفل الشارع من جهة اليمين أمام المخبزة.

شكرته وخرجت من الدكان وأنا أحس بنشوة النصر بعد ذلك الموقف الغبي والمحرج .

خرج أبي من بعدي ويحمل في يده كيس ربما يوحد بداخله بعض الحلويات ، أدخل أبي الكيس تحت جلبابه بداعي الستر على ما يعتقد أو إنها حاجة في نفسي يعقوب .

_ سألت أبي عن هذا العمل، ولماذا هذا التستر ؟

_أجاب : هل هذا يسبب لك إزعاجا أو أحراجا؟ لقد تربينا على هذه الأشياء .

_ قلت له: يا أبي الأمور تغيرت، لا داع للستر، حتى الأجساد أصبحت عارية.

اقترب مني صديقي الإفريقي وقال بصوت منخفض :عقلي مشوش ولا أعرف كيف أسألك.

_ قلت له : تكلم، ما الذي تريد معرفته، ومن ماذا أنت مشوش؟

_ أول شيء عندي ملاحظة على الطريقة التي تتحدث بها مع ولدك.

ثانياً كيف يعقل أن نذهب إلى منزل جزائري؟!

_ مع كل احتراماتي لك سيدي عليك أن تعلم بأنني تربيت على الحلال وليس هذا عيب على تلك الأمور التقلدية . فيما يخص صديق أبي متأكد بأنه رجل عظيم ويستحق كل الاحترام والتقدير وهذا ينطبق على كل الجزائريين والمغاربة.

سؤال لك صديقي الإفريقي، ما الذي تعرفه عن الجزائر أو المغرب العربي ككل بعيداً عن ما ينقله لنا الإعلام؟ .

_ يقع المغرب العربي شمال القارة الإفريقية ، بين خطي العرض ١٥° و٣٧° شمالا ، وخطي الطول ١٧°و٢٥° شرقا ، وهي منطقة جغرافية تضم خمس دول (المغرب _ الجزائر موريتانيا _ ليبيا _ تونس) وتبلغ مساحتها ٦ ملايين / كلم^2.

يحد المغرب العربي شمالا البحر المتوسط جنوبا مالي والتشاد والنيجير والسنيغال، شرقا مصر، وغربا المحيط الأطلنطي .

تتشابه الأشكال التضاريسية ببلدان المغرب العربي ، كما تتعرض المنطقة لنفس التيارات المناخية .

_ يتضح لي ياصديقي بأنك مجتهد في مادة الدراسات الاجتماعية، ماذا تعرف عن العناصر البشرية؟

_ يتشكل سكان المغرب العربي من تمازج ثلاثة عناصر بشرية (الأمازيغ _ العرب _ الزنوج) ، تجمعهم روابط الدين واللغة والعادات والتقاليد والتاريخ المشترك .

يبلغ عدد سكان البلدان المغاربية الخمس حوالي ٨٠ مليون نسمة ، وهم يتوزعون بشكل مختلف حسب الظروف الطبعية والاقتصادية .

_ قلت له: هل هناك شيء آخر تعرفه عن هذه الدول؟

_ قال لي : نعم إضافة إلى ما ذكرته ، هناك عناصر تنوع طبعية بين البلدان الخمس في اختلاف المساحات بينها ، حيث تعتبر الجزائر أكبر دول المنطقة، حين تبقى تونس هي الأصغر مساحة.

تنوع التضاريس بالمنطقة ، حيث أنها مرتفعة في الشمال، حيث تنتشر السلاسل الجبلية بينما تنتشر التضاريس الصحراوية المنبسطة بالجنوب.

تنتشر بالمغرب العربي ثلاثة مجالات مناخية : مجال متوسطي ، مجال صحرواي ثم آخر شبه مداري بجنوب موريتانيا .

أخبرني سيدي الإمام، لماذا تسألني هكذا أسئلة، ما الغاية؟

_ قلت له : أُنظر أمامك، لقد وصلنا، نحن أمام البيت الآن، سأخبرك فيما بعد .

دق أبي الجرس، فتحت لنا طفلة صغيرة الباب، لم يتجاوز عمرها عشر سنوات، تكلمت وهي تبتسم: من أنتم؟ قلت لها هل الحاج عبدالقادر في البيت؟

_ قبل أن تجيب على السؤال صوت ينبعث من الداخل، من على الباب؟

_ جدتي في ناس بتدور على جدي.

_ لا عزيزتي نحن بنسأل عنه فقط.

_بعد لحظات خرج الحاج عبدالقادر، ابتسم عند رؤيتنا

_وقال بصوت مرتفع هذا يوم كبير، أخيراً صديقي القديم شرفنا بالزيارة.

استقبلنا الحاج وزوجته بحفاوة ، ورافقنا إلى غرفة كبيرة وكل الأثاث فيها قديم حيث جمعت بين التراث المغربي والجزائري . لديها باب أمامي صغير وآخر كبير مصنوع من

الخشب القديم والزجاج ، ومدهون باللون الأزرق، وتطل على منظر رائع تغطي على عراقة المنزل ، وتضفي على المكان سحرا لا يقاوم ، وتمنح للنفس اطمئنانا ، وللروح السكينة .

طلب منا العم عبدالقادر الجلوس ..من خلال حديثي معه، علمت بأنه يعيش هنا منذ أكثر من ٣٠ سنة، وتعرف على أبي في مدينة وجدة، حيث كان أبي وقتها إمام مسجد هناك، وكان يدرس أحد أبنائه، أخبرني بأن ابنته متزوجة من شاب مغربي، وأنه سعيد بالعيش هنا ولا يشعر بالغربة، أحضر لنا بعض الأكلات الجزائرية التقليدية

_قال لي : هل تعرف إسم هذه الأكلات ؟

_ قلت له : لا لم يسبق لي أن تناولت هكذا أكل

ابتسم وقال: هذه اسمها الشخشوخة، وهي معروفة في الجزائر

قال صديقي الإفريقي: لقد تناولت هذه الأكلة وكذلك الكثير من الأكلات الجزائرية القديمة.

بعد الانتهاء من الأكل والمناقشة في هذه المحاضرة عن الأكل الجزائري والمغربي تعرفت على الحاجة زوجة العم وأحفاده وبناته، لم يكن أولاده الرجال موجودين، اعتذرت منهم لكون ظروفي لا تسمح لي بالبقاء، فموعد صلاة العصر لم يتبقى له الكثير.

خرجت من هناك مع إعطائهم وعداً بزيارتهم في أقرب فرصة.

خرجت وما هي إلا ثواني حتى لحق بي وليام، قال لي :

سيدي الإمام لقد نسيت الإجابة على أسئلتي

_ قلت له : كيف وجدت العم عبدالقادر وأهله؟

_قال لي : هل تتهرب من الإجابة، أعتذر لقد كنت مخطئا في الحكم المسبق عنه، إنهم كرماء وطيبون ومتواضعون.

_ معك حق، مع الأسف أحيانا لا يجب أن نحكم على غيرنا بدون علم مسبق، وفي ما يخص سؤالك، المغرب والجزائر أو المغرب العربي ككل هناك عدة قواسم مشتركة بين هذه الدول وهي تكمل بعضها البعض من كل الجوانب ، واندماج هذه الدول مع بعض هو مصلحة ومنفعة للجميع ،لكن مع الأسف لا أحد يتكلم عن هذه الجوانب الإيجابية، وخاصة الإعلام، إلا فئة قليلة

وهذا ينطبق عليك صديقي، حكمك المسبق كان انطلاقاً مما نقله لك الإعلام

_ معك حق سيدي الإمام أتمنى أن تندمج هذه الدول مع بعض يوما ما وتشكل لنا قطب اقتصادي مهم يعود بالنفع على الجميع ، فهمت الدرس، سأتركك الآن، يجيب شراء بعض الأغراض

_ قلت له : إن شاء الله خيراً، تعالى معي إلى ذلك المحل.

دخلنا إلى أحد المحلات التجارية الخاصة بملابس الأطفال، اشتريت بعض الملابس لابن وليام، لم احضر في مناسبة ولدته ولم أرسل له هدية، وهذه كانت مناسبة لذلك.

خرجنا من المحل، أكملت طريقي للمسجد ووليام ذهب في طريقه للمحطة،

صليت العصر بالناس والمغرب، بقيت في المسجد، بعد أداء فريضة صلاة العشاء

عدت للمنزل، لم أجد أحد، شغلت التلفاز، نفس الأخبار على كل القنوات الإخبارية، قتل هنا وهناك، مشردين، ضحايا، مهاجرين، سرين، لا شيء يدعوا للفخر .

انتظرت حوالي ساعة أو ربما أكثر، سمعت صوت المفتاح وهو يدور في قفل الباب، أحسست بقدوم أمي، وقفت من مكاني واتجهت صوب الباب، كانت أمي قد تقدمت خطوات للأمام.

السلام عليكم بني ، هل تأخرنا

_ وعليكم السلام أمي، لا، ليس كثيراً

_ ألن تسألني أين كنا؟

_ أمي، تعلمين بأني لست شخص فضولي ، ولا أتدخل في شؤون الآخرين

_ سأخبرك، عندما خرجت من البيت قصدت بيت الجارة حكيمة غفور، لديها محل للخياطة، وتعلم الفتيات الطراز والخياطة.

قاطعت كلامها بدون شعور هل قابلتيها ؟ هل قمت بتسجيلها هناك !

_ نعم ياولدي، كنت سأخبرك لكنك لم تعطني فرص لإكمال حديثِي، ومن الغد ستبدأ معهن، كما أعطيتها الآلة الخياطة لتتعلم في البيت، وليس هذا كل شيء بعدما خرجنا من عند الجار حكيمة مررنا بأحد المياتم، طلبت مني أن ندخل إلى هناك ، اشتريت بعض الحلويات والملابس .

_ قلت لها : اللهم تقبل منكم صالح الأعمال أماه

_ قالت لي : آمين يارب وجميع المسلمين ، الشيء الجميل ياولدي عندما دخلنا إلى هناك ياولدي كل الأطفال كانوا مسرورين وفرحين بزيارتنا، والكل كان يسألها لماذا تأخرت علينا وأنهم اشتاقوا لها.

بعدها عرفت من مديرة دار الأيتام السيدة سهيلة حكيمي أنها كانت دائما تزور هؤلاء الأطفال بانتظام ، وأنها لم تبخل يوما بتقديم المساعدة

_ قلت لها : هكذا يجب علينا أن نفعل يا أمي، مكانة اليتيم عند الله عظيمة

ضرب المثل لنا جميعاً بمحمد صلي الله عليه وسلم رسول الله وحبيبه وخليله وأكرم الخلق عليه. وهو ذو الخُلُق العظيم والرحمة المهداة للبشر والخلق جميعاً.

فقد تيتم محمد صلي الله عليه وسلم عدة مرات. فقد ولد يتيماً. وهو حمل في بطن أمه حيث توفي والده في ريعان شبابه. وهو في تجارة خارج مكة ومازال ثياب عرسه علي زوجه آمنة في رونقها وحداثتها. تم حينما ولد استُرضع في بني سعد خمس سنين لم يرى فيها أمه سوى أيام قليلة. فلما عاد إليها وهو في الخامسة من عمره ظل في حضنها وحنانها سنة واحدة، ثم توفيت ودفنت في "الأبواء" في المدينة المنورة حينما كانت في زيارة معه لقبر أبيه. فرأى يُتم الأمومة مرة ثانية بعد أبيه. ثم احتضنه جده عبدالمطلب. وكان يحبه ويكرمه. ثم ما لبث أن لحق بأبيه وأمه. فتوفي وهو مازال في الثامنة من عمره ، حيث احتضنه عمه أبو طالب حتى صار شاباً يافعاً فخرج للتجارة وعمل بها مع خديجة رضي الله عنها، ثم اختارته خديجة لأمانته وصدقه وحُسن خلقه زوجاً لها. فعوَّضه الله بها عن حياته. ويتمه. وكانت عوناً له في نشر رسالته. هذا وقد أوصى الله تعالي باليتيم في قرآنه الكريم عدة مرات. منها قوله تعالي لرسوله الكريم الذي رباه بنفسه واختاره لرسالته:

وَالضُّحَى ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ١

وقد أوصى جل وعلا في أكثر من ثلاث وعشرين آية باليتيم في مواقف عديدة من وصايا القرآن الكريم منها قوله تعالى: "ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن" الأنعام: ١٥٢. ويقول تعالى عن الكافر: "أرأيت الذي يكذِّب بالدين. فذلك الذي يدع اليتيم" الماعون: ٢ ومنها التحذير في قوله تعالي : "إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً" النساء:.١٠

كما حث تعالى على إكرام اليتيم. والبر به فقال: "قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين". البقرة: ..٢١٥ والآيات كثيرة في هذا المضمار.

كذلك قال صلي الله عليه وسلم : "أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا" رواه سهل بن سعد وأخرجه أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي، ومنها نفهم أنه بجوار الرسول صلى الله عليه وسلم في الجنة.

ونحن اليوم في هذه الأيام الصعبة ترى اليتيم يقهر ويظلم إلا في بعض جمعيات الإيواء. فعلينا جميعاً أن نرفق به ونحتضنه ونأويه ونعلمه، عسى أن يرحمنا الله ويرحم أيامنا، يقول تعالى "وليخشى الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم" النساء: ٩ والله المستعان.

_ قالت لي وعلى وجهها علامة استفهام : هل سبق لك أن ذهبت للميتم أو دار العجزة . ومتى آخر مرة ذهبت؟

_ هذا السؤال كان كطعنة خنجرة في صدري، ربما الطعنة أهون وأخف، قلت لها: نعم يا أمي لقد قمت بعدة زيارات من قبل لكن منذ مدة طويلة مع الأسف.

_ قلت لها : مبروك أختاه إن شاء الله خيراً

_ قالت لي : الحمدلله أنني تعرفت عليك وعلى عائلتك الكريمة ، ربما أنا محظوظة قليلا عن الألف مثلي.

_ لا تقولي هذا الكلام أختاه.

انصرفت من أمامي دون البوح بأي كلمة، تذكرت بأني قلت لها سابقاً سأخبرها بفضل الأنثى ومكانتها في الإسلام، ناديت عليها.

قلت لها : هل تتذكرين قلت لك من قبل سأخبرك بفضل الأنثى في الإسلام ومكانة المرأة بشكل عام.

_ قالت لي : نعم متشوقة لمعرفة ذلك منذ ذلك اليوم، لكني لم أستطع أن أطلب منك سيدي الإمام.

_ يمكنك أن تسأليني عن أي شيئ تريدين ، وأفيدك إن شاء الله بما أعلم وأعرف بقدر المستطاع

_قالت لي بسرعة وهي تعتدل في جلوسها بعدما أحضرت لي كرسياً خشبياً :

إن شاء الله لن أتردد من اليوم، أخبرني بسرعة

_كما تريدين صبراً يا أختاه.

قبل الإسلام لم تكن للبنات قيمة، بل للمرأة عموما أية أهمية، حيث كانت مُضطهَدة، مظلومة، مكدودة، حتى جاءت الرسالة الخاتمة مع أعظم نعمة وأجمل هدية أهداها الله تعالى للعالمين؛ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحررت البنت من الظلم ونَوَّرتها بنور العلم..وحين تولد لأحدهم البنت يشمئز ويبأس ويعبس، وإذا بُشر أحدُهم بالأنثى

ظلَّ وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى مِن القومِ من سُوء ما بُشر به، أيمسكه على هُونٍ أم يدُسه في التراب ألا ساء ما يحكمون. أيمسك هذه الأنثى تعيش معه مُسببة له الهوان والذل، لما يتوهم منها ويفترض من عار وخزي. أم يدسها ويدفنها في التراب ويرتاح من شرها؟!!!

إن البنين والبنات نعمة من نعم الله العظيمة، وعطية من عطاياه الكريمة، فهم بهجة النفوس، وأنس البيوت، ومصدر سعادة الأبوين، وقد خص الله تعالى البنات بمزيد تشريف وتكريم، حين قدمهن في الذكر على البنين، فقال سبحانه: (يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور).

عن أنس قال: قال رسول الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كان له أختان أو ابنتان فأحسن إليهن ما صَحبتاه كنتُ أنا وهو في الجنة، وفرق بين إصبعيه". فالصحبة بإحسان ليس لها جزاء إلا الجنة... وأغلى من الجنة النظر إلى وجه الله الكريم.

عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تكرهوا البنات فإنهن المؤنسات الغاليات"

_ قاطعت كلامي، أخبرني سيدي الإمام كيف كان يتعامل الرسول عليه الصلاة والسلام مع بناته؟

_ لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعامل البنات باللطف والإحسان، ويكرمهن غاية الإكرام، جامعا بين الرحمة النبوية، والرعاية الأبوية، يتدفق قلبه لهن حنانا ومحبة، وعطفاً

ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور بناته في أمر زواجهن؛ إكراما لهن، وتقديرا لحقهن، ويختار الأكفأ لهن، وييسر مهورهن، ويسهل زواجهن؛ ليسعدهن ويدخل السرور إلى قلوبهن. واستمرت عنايته عليه الصلاة والسلام بهن بعد زواجهن، فكان يزورهن في بيوتهن، ويجلس معهن، ويتفقد أحوالهن، وكن يلجأن إليه عند حدوث المشكلات؛ فكان لهن الأب الرحيم، والقلب الرقيق؛ الذي يشاركهن فرحهن، ويحرص على سعادتهن في بيوت أزواجهن، وهنائهن في حياتهن .

إضافة إلى ذلك أختاه لم يذكر الله في كتابه سورة الرجال بل ذكر سورة النساء، وهذا دليل على تكريم المرأة..كذلك من مظاهر تكريم المرأة في الإسلام أن سواها بالرجل في أهلية الوجوب و الأداء ،وأثبت لها حقها في التصرف، ومباشرة جميع الحقوق ، كحق البيع ، وحق الشراء ، وحق الدائن ،وحق التملك، وغيرها .

وقد كرم الإسلام المرأة ، وذلك حينما أخبر الله تعالى في القرأن بأن الله خلقنا من ذكر وأنثى وجعل ميزان التفاضل العمل الصالح والتقوى فقال عز من قائل

<< يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) >>

كذلك الأمر للأزوج أن يباشروا زوجاتهم بالمعروف :

قال الله تعالى : وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ [النساء:١٩]، أي طيبوا أقوالكم وحسنوا أفعالكم وهيأتكم حسب قدرتكم لزوجاتكم كما تحب ذلك منها ، فافعل أنت بها مثله ، كما قال تعالى ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام :< خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي >
."رواه الترميدي وصححه الألباني ."

أطالت أمي علينا من باب المطبخ وقالت وهي تمسك بين يدها علبة صغيرة

_ قلت لها : تعالى يا أمي لتسمعي ما جاء به الحق المبين في كتابه ، اقتربت وجلست وهي تدير حاجبيها

_ نعم أسمعك ياولدي

_ قال تعالى : << {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يبلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً* وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً } الإسراء ،٢٣. ٢٤ .

لقد أمر الله تعالى في عبادته وحده في الآيتين، وقرن بعبادتة البرِّ بالوالدين ، وهذا يدل على أهمية إكرام على الأم والأب ، ونهى الأولاد أن يقولوا للوالدين قولا سيئاً ، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيء ، ولا يجوز للأولاد أن ينهروهما ، ويصدر منهم كلام قبيح ، بل على الأولاد أن يخاطبوا الوالدين بالرفق واللين ، والقول الحسن ، ولا سيما الأم .

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم م قال: أبوك[١].ن_ قلت لها : من خلال هذا الحديث الشريف نرى أن الرسول عليه الصلاة والسلام أوصى بالأم ثلاث مرات ، وهو تكريم للمرأة المسلمة .

وقفت أمي من مكانها مذعورة وقالت:

عليه الصلاة والسلام نسيت الإبريق على النار ولم أشعل النار للأكل

قلت لها : تريث يا أمي وبعدها يمكن أن تفعلي هذا

_قالت لي : إذا جاء أبوك ولم يجد العشاء جاهز سيقوم بتطليقي، لا أعرف أي طلاق سيكون من نصيبي لا قدر الله

_ قلت لها مازحا : اجلسي يا أمي، دعيني أشرح لك أنواع الطلاق ههه

ردت بكل ثقة: لقد شرح لي أبوك هذا قبل أن تولد.

في هذه اللحظة رن الجرس.

قالت أمي والحيرة على وجهها : لقد أتى أبوك والعشاء ليس جاهز بعد

_ قالت هي الأخرى ليس العم، ربما شخص آخر

_ إن شاء الله خيراً، من يكن وكيف عرفت يا أختاه؟

قالت أمي وهي تبتسم : تصرفاتك أبوك معروفة وتتعرف على شخصياته بسرعة

_ إذن سأذهب لفتح الباب لأرى من الطارق.

السلام عليكم، هل أنت إمام المسجد؟

_ وعليكم السلام ورحمة الله، نعم، بماذا أساعدك

_ زوجي مريض وقد أرسلني إليك إنه يحتاج لك

_إن شاء الله خيراً، انتظرني سأخبر والدتي بأني سأذهب معك.

دخلت للمطباخ إلى عند أمي قلت لها :

أمي سأذهب إلى بيت أحد الجيران قد أرسل في طلبي..ربما آتأخر لا تنتظروني

_ اذهب بسرعة، لا تجعله ينتظر ربما يردك في أمر مهم

خرجت وجدتها تنتظرني قلت لها أعتذر على التأخير

قالت لي : لا عليك ياولدي أنت كما أخبرني زوجي ما شاء الله عليك

_ كيف، أنا يا أماه؟

_ قالت لي : لم تسألني من هو زوجي، وافقت على المجيئ معي دون أي تردد أو سؤال.

_ هل يجب تقديم المساعدة للناس الذين نعرفهم فقط؟

_ حفظك الله من كل شر ياولدي أنا زوجة الحاج عبدالله ابن سعيد بهوش

_ استغرق الوصول إلى بيت العم حوالي عشرون دقيقة بين أزقات الحي، عندما وصلنا كان البيت صغير يتكون من طابق أرضي، أو يمكن القول أن العم يسكن في حي شعبي مهمش، إنارة الشوارع ضعيفة، ربما لم يتم تغيرها من عهد الاستقلال

فتحت العمة باب البيت في ظلام حالك عند نهايته ضوء خافت وقالت لي : انتظر حتى آتي بشمعة من الداخل يا ولدي

_ فقلت : ليس هناك داع.

أخرجت هاتفي، أشعلت مصباح الهاتف ونظرت حولي .. ما يمكن قوله عن هذا المنزل إنه على قدر سوئه من الخارج فسوؤه من الداخل أكبر ، كيف يمكن العيش في هكذا بيت !! هل مازال الناس يعيشون في هذه المنازل دخلت إحدى الغرف حيث كان العم مستلقيا على فراشه_قلت له :السلام عليكم يا عماه، ابتسم ابتسامة شاحبة ورد السلام ..

الغرفة صغيرة مضاءة بالشمع، ورائحة الكربون منتشرة في المكان إثر احتراق الشمع.

_ فقلت : خيراً أيها العم

_قال لي : العلم عند الله، لكن ربما ساعة الفراق قد اقتربت، لكن هناك أمرا أريدك فيه..كان الإرهاق والتعب واضح عليه من خلال حديثه ونبرة صوته من شدة آلام المرض..طلبت منه الذهاب إلى المستشفى لكنه رفض رغم محاولات إقناعه بكل الطرق .. كان مصرا أن الذهاب لن يجدي أي نفع

في هذه الأثناء كانت زوجة العم في المطبخ تحضر الشاي فأتيت بها لإقناعه بتغيير رأيه

_ سلام الله عليك أيتها العمة _ وعليكم السلام ورحمة الله

_ لقد حاولت إقناع العم بالذهاب إلى المستشفى لكنه رفض ، هل يمكنك الحديث معه في هذا الموضوع ؟

_حاولت معه كثيرا ولم يستمع لي، بما أنك إمام مسجد ولم تستطع إقناعه كيف سأفعل أنا ؟

بعد التفكير قليلا استوعبت كم أنا غبي، لم يقطع الضوء لعطب ما أو ليوم، وهذا يتضح من خلال بقايا الشمع الموجودة .. ربما قطعت الكهرباء لأيام أو شهور كثيرة وهذا ما يفسر أنه تم قطع الكهرباء عن البيت بسبب عدم الدفع)قد لا يملك ابن آدم مالا ولا جاها ويمكنه العيش، ولكن من (الصعب أن يعيش بدون كرامة، بحثت في

هاتفي عن رقم سائق تاكسي كنت أحتفظ به من فترة ، اتصلت به أخبرني بأنه قريب من العنوان الذي أعطيته إياه وطلبت منه الحضور بسرعة.

خرجت من المطبخ وتوجهت إلى غرفة العم وتصرفت بشكل طبيعي دون أن أجعله يحس بأي إحراج ، بعد خمسة عشرة دقيقة اتصل بي صاحب سيارة الأجرة وقال لي بأنه في الحي ولم يعرف البيت بالضبط ، طلب مني الخروج _قلت للعم سآخذك للمستشفى لقد وصلت السيارة ، صمت لوقت طويل ، لم يكن يريد التحدث ، ثم تلفظ ببعض العبارات ، وكأنه يتحدث مع نفسه " لماذا تفعل هذا؟ قلت لك ليس هناك داع للذهاب للمستشفى.

_ قلت له : أيها العم لو كنت أنا المريض هل ستتركني

_ قال لي : أستغفر الله ماذا تقول، كل ما في الأمر ليس هناك جدوى من الذهاب

_ قلت له: جهز نفسك سأخرج لأطلب من السائق االقتراب أكثر، خرجت، نظرت حولي، لم أرى أي سيارة، اتصلت بالسائق وسألته عن مكانه، فقال: سأقوم بإشعال أضواء السيارة.

كانت السيارة بعيدة قليلا فطلبت منه االقتراب نحوي أكثر

_ السلام عليكم سيدي، كيف أحوالك ؟ إن شاء الله خيرا.

_ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، الحمد لله بخير

_ هل تأخرت عليكم؟

لا، ليس كثيرا، تعالى معي لو سمحت.

دخلت إلى عند العم الذي كان بالكاد يستطيع الوقوف، وضع يده فوق كتفي وأسند جسده، قام سائق التاكسي بنفس الفعل، انطلقنا صوب المستشفى، ثرثرة السائق يصل صداها خارج زجاج السيارة ، حديثه كله شكوى كما يعرف عن سائقي سيارات الأجرة لكن كلامه في بعض المواضيع، صحيح كالطرقات التي لا ترقى للمستوى المطلوب، وارتفاع الأسعار وخاصة البنزين ، هذه المعلومات تجدها عند السائقين كأنهم عاملون في البورصة .

وصلنا للمستشفى، كانت الساعة حوالي العاشرة ونصف ، وضعت المريض على كرسي متحرك لأنه كان شبه عاجز عن الوقوف، اتجهت به نحو أحد الموظفين بغرض إنشاء ملف خاص يمكنك بفضله حجز مكان للمريض في أحد طوابق المستشفى، سلمت البطاقة الشخصية لموظف في الاستقبال، بعد دقائق أرجع لي الهوية ، أخدت إحدى الممرضة العم إلى إحدى الغرف، قالت لي:

سنضع له سويرو ، وفي الصباح سيأتي الطبيب ليشخص حالته.

قالت الممرضة للعمة يمكنك البقاء بجانبه بدون أن تتحدثي معه، يجب أن يرتاح، في هذه الأثناء جاء سائق التاكسي، أخبرني بأنه سيذهب لعمله.

طلبت منه أن يأتي لأخذنا عندما يقترب أذان الفجر بساعة .

أخذت مكاني في قاعة الانتظار..القاعة مليئة عن آخرها..هنأت نفسي على الكرسي الوحيد الذي وجدته شاغرا..كأنه كان ينتظرني.

اتصلت بأبي، قلت له: سأبقى في المستشفى هذه الليلة..لم أشعر بالوقت أو الملل، متعود أن أظل وحيداً ، رغم ثرثارة الموجودين في قاعة الانتظار، غفوت قليلا ، فأنا لست

معتاد على السهر، أنام مبكراً وأستيقظ مبكراً ، استيقظت على صراخ أحدهم، كان شاب في العشرنيات من عمره كان كل جسده مغطى بالدماء، تم إدخاله لإحدى الغرف، ظل يصرخ وصراخه يزداد مع الوقت، سأل أحد الموجودين إحدى الممرضات عن حالة الشاب، قالت:

لقد تعرض لحادث سير خطير

_ قلت لها : الشاب يبدو عليه الألم، يجب أن ينظر الطبيب لحالته، مرت أكثر من ١٠ دقائق وهو يصرخ

_ قالت لي : الطبيب ليس هنا أُنظر إلى ساعتك إنها الثانية عشرة بعد منتصف الليل

_ كيف يعقل نحن أكثر من ٤٠ مليون مغربي ولدينا عدد لا بأس به من الجامعات والمعاهد المختصة في مجال الطيب ولدينا نقص في الأطباء حيث ليس هناك طبيب يكون متوجد في العمل ليلاً؟!!

_ ردت والأسف يظهر على وجهها، ليس لنا نقص فى الكفاءت الطبية، المشكل ليس لنا من يوظفهم أو يدفع رواتبهم.

سمعت صوت أحدهم يقول: اللعنة لديهم مزانية خاصة للبرلمانيي،ن والوزراء أصبح عددهم يسابق النمو الاقتصادي للبلد

_ خرجت لأستنشق بعض الهواء النقي كانت السماء صافية والقمر مضيء، كنت أتأمل في هذا الكون العظيم وأفكر ما الذي ينقصنا نحن العرب ؟ لماذا لايمكننا أن نتقدم ببلداننا ونتغير للأفضل؟ لماذا لا نكون أمة وحيدة متحدة كما كان أسلافنا؟ لماذا نحن

كالقطيع متفرقين ومتشتتين في زمان الاتحاد؟ كل دول العالم تتحد مع بعضها البعض إلا العرب !!

لا أعرف كم لبثت هناك على ذلك الكرسي، كم دقيقة وكم ساعة ، عندما أحسست بالبرودة دخلت للداخل وأكملت الانتظار، يالها من ليلة طويلة ، سمعت صوت رنة هاتفي كان رقم صاحب سيارة التاكسي.

قال لي بأنه ينتظر في الخارج

هممت بالخروج مسرعاً،استوقفني صوت زوجة العم، هل ستذهب أيها الإمام؟

_ نعم سأذهب لأذان الفجر وإقامة الصلاة بالمصلين وأعود إن شاء الله

_تقبل الله من الجميع ، حسنا في أمان الله .. خرجت متجهاً لسيارة الأجرة

_صباح الخير

_ صباح الخير

انطلقت السيارة، لفت انتباهي صمت سائق السيارة، قلت له :

أراك صامتاً على غير عادة سائقين سيارة الأجرة، هل بسبب التعب والنوم!؟

_ قال لي: نعم متعب قليلاً، لكن دعني أشرح لك لماذا سائقوا سيارات الأجرة ثرثارين أو يتحدثون كثيراً. قلت له : تحدث، في الاستماع لك

_ بصفتي سائق سيارة الأجرة يركب معي كل يوم عدة أصناف من الناس من شتى الجنسيات والثقافت والعمر من شباب ورجال ونساء، إضافة إلى عملي بالليل ، أحيانا يركب معك شخص لا ترتاح له نفسياً ليطمئن قلبي أتحدث معه في كثير من المواضيع

لأكون أكثر معرفة ودراية بمن يركب معي، إذا ارتحت له وقتها أكمل معه في الكلام، إذا لم أرتاح له أحاول البقاء متيقظ لكل خطوة وكل حركة لأكون مستعداً له.

_ قلت له : ما شاء الله عليك، تحليل بسيط وصائب فعلاً، من خلال التواصل مع الناس نرتاح لهم ، ابتسم ووضع يده على عصا خشبية وقال أتمنى ألا أضطر يوماً أن أستعمل هذه العصا في حياتي.

_ آمين وكل المسلمين، اللهم أديم علينا نعمة الصحة والعافية ، كان من الأفضل لو كنت طبيباً ما.

_ قال لي : في الحقيقة أنا طبيب، أحمل شواهد تثبت ذلك، لكن الظروف لم تسمح لي بأن أفتح عيادة طبية ،الحمدلله حصلت على عيادة متناقلة .

_ الحمدلله، إن شاء الله خيراً ، مع الوقت تحقق ما تريد، توقف هنا.

مع السلامة في أمان الله.

بعد الصلاة خرجت من المسجد متوجهاً للمستشفى ، سمعت صوت أحدهم ينادي عليَّ باسمي ، غريب! لا أحد هنا ينادي عليَّ باسمي الشخصي ، التفتّ لأعرف من المنادي، لأجده أبي، توقفت أنتظره ليقترب أكثر .

_ صباح الخير يا أبي

_ صباح الخير ياولدي إلى أين

_سأذهب للمشفى لأرى العم وزوجته

_تعال للبيت لتنام قليلاً تبدو مرهق ولم تنم طوال الليل

_ لا يمكنني أن أتركهم، ليس لهم أحد غيري

_ أنتَ ستنام قليلاً لترتاح ، أنا وأمك سنذهب لزيارتهم وسنظل هناك حتى تأتي إلينا عندما تستيقظ

_أكملنا المشي للبيت، وجدنا أمي قد أعدت الفطور ، لم أستطع أن آكل شيء، دخلت لغرفة لكي أنام قبل أن أضع رأسي على الوسادة، تذكرت شيئاً مهماً

دلفت مسرعاً للخارج، أبي أبي، إذا كان العم سيخرج اليوم من المشفى ادفع تكاليف علاجه وكل ما يحتاج ، عند عودتك سأرجع لك المبلغ الذي دفعته

_ قال لي أبي وهو في حالة غضب : حسنا سأفعل

_ أعتذر يا أبي لم أقصد ذلك .

في الحقيقة ما كان يجب علي قول ذلك ، لكن دون شعور خرجت تلك الكلمات، الحمدلله تقبل مني أبي اعتذاري

قمت بتعديل منبه الساعة ، ألقيتُ بجسدِي المتهالِك والمرهق على السّرير، حتّى أجدُنِي قَد غَفوتُ في نومٍ عميق ،استيقظت على صوت المنبه ، الساعة تشير إلى العاشرة و النصف صباحاً ،سمعت صوت صرير الصنوبر يأتي الصوت من المطبخ، قلت في نفسي هل أمي نسيت الماء مفتوح، دلفت للمطبخ

_ السلام عليكم أختاه، ألم تذهبي معهم؟

_وعليكم السلام ورحمة الله أيها الإمام، لا، ذهبت ورجعت قبل قليل، سأنتهي من غسل الأواني وأذهب للبيت ...لتعلم الخياطة

_ موافق إن شاء الله، هل مازلت تشربين الدواء؟

_ لا، منذ أيام لم أشربه

_ لماذا، هل انتهى لك الدواء ولم تخبريني؟

_ لا، لم ينتهي، الطبيب قال لي عندما تحس نفسك بخير لا تشربيه ، ربما أصبح مدمنة عليه.

_ آه تذكرت، غدا إن شاء الله سنذهب للطبيب

_ كما تريد أيها الإمام، هل أعد لك الفطور؟

_ لا ، أكملي ما تفعلين ، نسيت كيف هي حالة العم

_ مع الأسف حالته الصحية غير جيدة

_ حسنا، شفاه الله

أخذت حمام بسرعة وتوجهت للمستشفى.

قال لي أبي : أخبر الطبيب بأن حالة العم تستوجب أن يظل في المشفى لأيام حتى تستقر حالته.

لم ألتقي بالطبيب طوال اليوم نظرا لانشغاله مع المرضى حتى المساء، سألته عن وضع العم وما هو مرضه وكم سيظل في المستشفى ، أخبرني بأن وضعه مؤسف ولكن كل شيء بقدرة الله ممكن.

قال لي : لديه مشكل في ضرابات القلب غير منتظمة ، أحيانا ترتفع بشكل سريع كأن أحدهم يجري وراءه ، أحيانا تنخفيظ ، لدى وضعنا له هذه الآلة لتعديل نبض القلب، وهذه الأنابيب لإخراج الماء من جسده

_ قلت له : حالته لا تدعي إجراء عملية ما

_ في الحقيقة حالته الصحية تستدعي إجراء عملية في أقرب وقت لكن نظراً لعمره وجسده الضعيف لا يمكننا المخاطرة، قد يموت أثناء ذلك

لم أفهم كلام الطبيب بشكل واضح ، كل ما استوعبته حالة العم الصحية متدهورة وهذا ما يتضح من خلال كلام الطبيب وملامحه

قضيت الليلة في المستشفى

اتصل بي والدي، قال لي: أليس اليوم موعد الطبيب إنه ينتظرك؟

ركبت سيارة أجرة وتوجهت للمنزل، أكلت ، أخذتها للطبيب، استغرب عندما أخبرته بأنها أقلعت عن التدخين وشرب الخمر .

لم يصدق كلامها في البداية لكن بعد إجراء التحاليل والفحوصات تبين له صدق كلامها.. لقد فرحت من أجلها كثيراً.

بعدما خرجنا من المستشفى أخبرتني بأنها سعيدة بنمط حياتها الجديدة بعيداً عن كل شيء ، وأننا في الحياة نحتاج لمن يمسك بأيدينا ويصطحبنا لبر الأمان فقط

لم أشعر باليوم.

الظلام يخيم على جسد المدينة الهزيل ، أنا جالس في مقعدي في هذا المشفى أتأمل وجوه المرضى وعائلتهم ، كم نتقرب من الله سبحانه وتعالى عند المرض أو عندما نواجه مشكلة ما أو عند وفاة أحد الأقارب لكن عند البعض ما هي إلا أيام تجده انحرف عن الطريق الذي اتخذه لأيام، قاطعت تفكيري إحدى الممرضة، المريض الموجود في الفرفة ٢٠٧ يطلب حضورك، دخلت كان وجهه مصفراً وجسده يتصبب عرقاً، لم يمضي على مرضه إلا أيام، لكن المرض أخذ منه النصيب الكبير

_ السلام عليكم أيها العم، خيراً إن شاء الله ؟

_ وعليكم السلام ورحمة الله أريد أن أتخلص من حمل كبير أحمله في قلبي قبل أن أموت

_ أطال الله في عمرك، أخبرني ما هذا العبء العظيم؟

_ كما تعلم أيها الإمام ابني هجرني على قوراب الموت، لا أعرف إن كان حي أم ميت، غادر أرض الوطن ضد رغبتي، لم يحترم قراري، حاولت كثيراً معه العدول عن قراره ، كنت كلما أغضب أشتمه وأصب كل غضبي عليه ، ترسخت عندي فكرة لدي لفترة من الزمان بأنه ابن عاق لوالديه ومصخوط وأناني....إلخ لكن بعدما فتحت عيني جيداً عرفت لماذا قرار الرحيل وخاطرا بحياته

أنا نادم على كل ما قلت في حقه وأنا راضي عليه دنيا وأخرة

لدى أيها الإمام إذا جاءت ساعة الحق وطلعت الروح من الجسد وشاء القدر ليرجع ابني إلى وطنه أخبره بأن يسامحني، قل له أباك راضي عنك وسامَحَ لك كل أخطائك الشبابية

_ قلت له : أطال الله في عمرك أيها العم حتى تجتمع القلوب مع بعضها .

في اليوم التالي اتصل بي الطبيب، أخبرني بأن العم قد قطع الكلام ، أتيت مسرعاً كان يحاول التحدث لكن دون جدوى، وجدت معه بعض الأشخاص نظراً لحالته النفسية لم أتحدث معهم أو محاولة معرفة من يكونوا، خرجت إلى قاعة الانتظار،في ما بعد أخبرتني زوجة العم بأن الأشخاص الموجودون داخل الغرفة مع العم هم أبناء أخيه وأخاه

كنت سأظل في المشفى مع العم بما أن أخاه وأبناء أخيه هنا، سأذهب للبيت لأقضي بعض الوقت مع عائلتي، سألت العمة إذا كانت تريد شيء مني،رجعت للبيت، تحدثت مع أبي وأمي في عدة أمور من بينهم ابني أخي أنس ودراسته

مع الأسف نظراً لانشغالي هذه الأيام نسيت أن أتصل به كما لم أذهب لزيارته من فترة، اتصلت بصديق لي وأخبرته إذا كان يستطيع غدا الأذان وأداء الصلاة بالمصلين ، لأني سأسافر إن شاء الله خارج المدينة بعد صلاة الفجر

قال بأنه ليس له أي عمل وسيكون شرف له القيام بهذا العمل العظيم ليوم واحد، ما أعظم الإمامة.

أخبرت ولدي بأني سأذهب لرؤية أنس ،إنه يدرس خارج المدينة لعدم توفر كلية هنا ، مع الأسف المغرب ككل يوجد بضع جامعات فقط ،بدأ يومي مع اقتراب موعد أذان الفجر ولولا المنبه الذي رن وأيقظني لتمكن مني النوم وفاتني الأذان بصفةِ إمام المسجد و الوقت المحدد للسفر ،بخطوات متثاقلة ذهبت، توضأت واتجهت صوب المسجد، صليت، خرجت من المسجد، ذهبت إلى المستشفى للاطمئنان على العم وأرى إن كان يحتاج لشيء ، دخلت إلى غرفته، كان جسده شاحب والمرض أخد منه نصيبه ، لم يكن يستطيع الكلام إلا بإصبعه، لهذا طلب مني الطبيب أن أخرج من الغرفة ، لم أجد زوجته هناك ..خرجت متجهاً لمحطة سيارت الأجرة الكبيرة التي تبعد عن المستشفى ببضع أمتار، وصلت المحطة وقد نال مني البرد نصيبه.

ركبت و خمسة أشخاص آخرين منهم امرأة وطفل صغير، ربما في السادسة من العمر يبدو أنهم ليسوا مغاربة، أثار انتباهي اللهجة التي يتحدثون بها، جلست بمكاني،

أخرجت هاتفي، كانت البطارية شبه فارغة، نسيت أن أضعه بالليل في الشحن لدى سأتصل بوالدتي لأطلب منها أن تذهب إلى بيت زوجة العم وتتفقد أمرها، كما يجب أن أخبرها بأمر البطارية إذا اتصلت بي ووجدت هاتفي خارج التغطية ، وقتها تكن البطارية فارغة من الشحن .

وصلت لوجهة، ترجلت من السيارة لأخد سيارة أجرة صغيرة، بعد دقائق ركبت سيارة صغيرة، أعطيت للسائق عنوان العمارة التي يقطن فيها أنس، وصلت لباب العمارة، سألت حارس البناية، أخبرني بأنه خرج قبل قليل لكن أحد أصدقائه في السكن مازال موجود، إنه أمامنا، سأنادي عليه

_ سليم سليم تعالى إلى هنا

_ السلام عليكم، صباح الخير، ما الأمر؟ دفعنا أجرة الكهرباء منذ أيام، لماذا تنادي علي؟

_ أجابه حارس البناية أيها الغبي، الرجل الذي يقف أمامي يسأل عن أنس، خذه في طريقك للكلية.

_ نظرى إلي هذا الشاب وقال من أنت ؟ ولماذا تسأل عن أنس ؟

_ قلت له اصبر قليلاً أيها الشاب، أنا عم أنس

_ قال لي : متشرفين أيها العم، أعتذر على طريقة كلامي

_وجه حارس البناية الكلام إلى الشاب سليم وقال له: اتصل بأنس ليأتي وأعطي المفتاح لرجل ليصعد وينتظره في البيت

_وجه سليم الكلام لكلين سأتصل بأنس وأستشير معه إذا قال لي اترك عندك المتفاح، سأفعل

_ قلت له أيها الشاب لا أريد المفتاح، معي المفاتيح، أريدك أن تأخذني معك بما أنك ذاهب للكلية.

وقفنا في جانب الطريق على الرصيف لانتظار الحافلة.

بعد طول انتظار وأخيراً وصلت الحافلة ،صعد سليم بسرعة رغم كل الازدحام الشديد ، هناك امرأة كبيرة في العمر أمامي ، وما يقارب مئات الشباب والفتيات من ورائي يدفعونني لكي أندفع إلى الأمام ، خرجت من وسط هذا الحشد الكبير حتى تصل الحافلة الأخرى، ترجل أناس من الحافلة ،يخاطبني باستغراب :

لماذا لم تصعد أيها الإمام؟!

_كيف أصعد؟ ألم ترى، كانت أمامي امرأة كبيرة في العمر وكيف أتسابق وسط تلك الفتيات؟؟ على كل حال ستأتي الحافلة الأخرى .

_ حقاً إن أمرك غريب، كأنك لا تعيش في هذا البلد ، عندما تصل الحافلة الأخرى تكون الحصة قد انتهت ، وعندما تأتي الحافلة نفس السيناريو سيتكرر ستجد نفس الحشود ربما أكثر .

_ أليس هناك احترام لمن هُنَّا أكبر سنا، كيف للشباب التزاحم وسط الفتيات من أجل الحصول على مقعد في الحافلة؟! .

_ ماذا نفعل أيها الإمام؟ هكذا هي الموصلات في هذا الوطن ، نحن الطلبة ليس لنا نقل جامعي خاص ، هذا عصر السرعة، كما ترى أغلب الأشخاص طلاب وآخرين عمال، الكل يحاول الوصول إلى وجهته وعمله في الوقت المحدد .

_ أستغفر الله العظيم، لا حول ولا قوة إلا بالله ، كم تبقى من الوقت على بداية الحصة؟

_ حوالي ساعتين ونصف.

_ باقي الكثير من الوقت وأنت تتزدحم مع الفتيات بدون خجل

_ هل أنت من كوكب آخر أيها الإمام، أم تحاول أن تتذاكى ، تلك الحافلة التي ترجلت منها تقف عشرات المرات، لو كنت ظليت فيها ٧٠٪ كانت ستصل متأخر عن الحصة بنصف ساعة أو أكثر

_ إذن تعالى لنأخد تاكسي

_ أيها الإمام أنا طالب جامعي من الطبقة العاشرة تحت الصفر، أنت تجهل الكثير لنذهب سيراً على الأقدام لتتعرف على الواقع ، ربما أنت تعيش تحت تأثير الإعلام أو الوهم .

عندما سمعت هاته الكلمات انشلد جسدي مع الأسف، كيف يعقل في هذا الوطن وعلى هذه الأرض الطيبة، لا يستطيع طالب جامعي دفع أجرة التاكسي

(لا خير في وطن أينما كان، لا يستطيع الطالب دفع أجرة التاكسي)

انطلقنا، كنت أتسائل مع نفسي كل هذه الأشياء السيئة تحدث وأنا لا علم عندي؟! كأني كنت في سبات عميق كما حدث لأهل الكهف الدين ناموا واستيقظوا، وجدوا

الأمور تغيرت للأحسن بعدما كانت سيئة ، وأنا كنت أعتقد بأن الأمور بخير وجيدة وتتحسن ونتغير للأفضل، ولكن كل توقعاتي باءت بالفشل .

أكملنا سيرنا، كان تفكيري مشوش ومصدوم من هول ما سمعت، رأيت مشهدا زاد من غضبي.

خاطبت سليم مسرعاً : سليم انظر إلى هناك إلى تفاهة هذا الجيل

– دعك منهم هذه الأمور، حدث ولا حرج

– هل رأيت كيف يعاملنا ذلك العجوز؟ انتظر حتى أعود.

– إلى أين تذهب؟ سأذهب معك

– السلام عليكم أيها العم، أعانك الله في عملك

– وعليكم السلام، اللهم آمين يارب

– ماالمشكلة شباب؟

أجابني أحدهم ضاحكا وبنبرة ساخرة ،وما شأنك أنت ، لماذا تحشر أنفك ؟

– رد سليم بصوت مرتفع والغضب ظاهر على ملامح وجهه، سأكسر لك كل أسنانك أيها القذر، لعنة الله عليكم

انصرفوا يا أبناء .

– قال العم : لا عليكم، هذه الأمور تحدث في مجال عملي

– قلت له : ما العيب أن تكون عامل النظافة، إنها مهنة شريفة!

– لا، ليس هناك عيب، العيب أننا مجتمع طبقي، مجتمع عنصري، إلا من رحم الله

قال سليم : يا عم نستودعك الله، أعانك الله ونسأل الهداية إلى هذا الشباب الطائش

- مع السلامة

- أرأيت يا سليم إلى هؤلاء الحمقى كيف كانوا يتعاملوا مع العم لأنه رجل ذنبه عامل نظافة؟! كيف كانوا يسخرون منه؟ هو يجمع الأزبال من هنا وهم يرمونها إلى الطرف الآخر، عندما تكلم معهم شتموه بأفظع الألفاظ . رغم أنه رجل تجاوز الخمسون سنة من عمره، أكل الشيب رأسه ، وانخرت قواه، وأصبحت عظامه هشة .

ومما زاد الطين بلة ، هو سكوت الناس عن هذه التصرفات، واللامبالاة جعلت هولاء الأوغاد وهذه الأصناف تكثر في المجتمع، وأصبح الأمر عادي .

- لا عليك ياسيدي الإمام، هكذا تجري الأمور في القارة السوداء

_ الحمدلله، وأخيراً وصلنا، ها هي الجامعة، هنا أدرس

مسحت العرق الذي كان يغطِّي وجهي ، رأيت سليم يتصبب عرقاً ويلهث كأنه رجل مسن وليس شاب في العشرنيات من عمره

_ قلت له : هذه المسافة يا سليم لو حاولت كل يوم تأتي على الأقدام للدراسة، أضمن لك الفوز بالأولمبياد في المسافة الطويلة.

_ إن شاء الله سأفكر في هذه الفكرة، انتظرني هنا خمس دقائق وسأرجع ، فيما كان سليم مستمراً في حديثه . كانت تلاحقني بإرهاق ، كوابيس التفكير في المستقبل المجهول لهذه الأمة وشبابها

قطع شريط تفكيري هذا صوت سليم، تعالى أيها الإمام قبل أن تضيع الحصة الثانية.

دخلت معه، دامت الحصة لساعتين متتاليتين، لقد أحببت شرح دكتورة المادة وتبسيطه للطلاب، بارك الله في عمله

قلت لسليم محظوظين، لديكم دكاتير مجدين في عملهم

_ قال لي : مع الأسف ليس الكل الأغلبية .....أعتذر لشخصك أيها الإمام على هكذا مصطلاحات

أخبرني سليم أنه اتصل بأنس وسنجتمع معاً للغذاء بعد صلاة الظهر

حداث كما أخبرني سليم التقيت أنس ابن أخي سلمت عليه لقد اشتقت له كثيراً لكن الظروف أحيانا تفرض نفسها، يسكن في الشقة إضافة إلى سليم وأنس ست طلاب آخرين كل من منطقة بعيدة من أرض الوطن جمعتهم الدراسة، لفت انتباهي صورة لشاب معلقة على الجدار سألت أنس عن صاحب الصورة هل يسكن معهم في الشقة ، بصفةِ عمه وولي أمره يجب أن أتعرف على كل من يسكن معه ومن أي نوع هما؟

_ إنها صورة لطالب كان يسكن معنا في بداية السنة اسمه مصطفى ، لقد انقطع عن الدراسة.

_هل أخد من العلم نصيبه.

_ لا، ليس كذلك، الظروف المادية لم تسمح له لاستكمال دراسته .

_ قلت لأنس : أليس هناك دعم مادي تقدمه؟ الدولة للطلاب أو منحة

_ رد على كلامي أحد الطلاب بصوت مرتفع : الدولة ماذا تفعل أيها الإمام..!!

_ قال له سليم : اُصمت

في ما بعد، بعد كل الجدال مع الطلاب أخبرني سليم أن المنحة لا يحصل عليها كل الطلاب ويتم توزيعها بشكل عشوائي وفئة

ربما قليلة من تحصل عليها إضافة إلى أن مبلغ المنحة الذي يقدم للطلاب مبلغ قليل .

لقد قضيت كل اليوم مع هؤلاء الطلاب، تجولت معهم في شوارع المدينة وزرت عدة أماكن تاريخية وثقافية، أحسست للحظة كأني شاب في عمرهم ، بوجود هؤلاء الشباب لا خوف على هذا الوطن ، رغم أنَّ الوطن مقسم لفئة معينة أخذت النصيب الكثير.

_ قال لي سليم : ممكن أخد بعض الوقت منك

_ قلت له : تكلم ماذا تريد

_ سلمني بعض الأوراق وقال لي اقرأ وأعطني رأيك

أخدت منه الأورق وبدأت أقرأ لأرى ما يوجد وما محتوى المكتوب

بعد القراءة اتضح لي الأوراق التي بين يدي عبارة عن مسودة لرواية

_ سألت سليم : هل أنتَ مؤلف الرواية؟

أجاب نعم.

_ الرواية جميلة من بدايتها ياسليم أبدعت لكن بعض الأفكار غير مقبولة من طرف العقول القاحلة ، ستوجه مشاكل وانتقادات غير منصفة في حقك هل أنتَ مستعد.

_ نعم أعرف بأننا نعيش في محتمع لا يتقبل مسألة الاختلاف ، ومستعد لخوض التجربة والدفاع عن أفكاري بما أنها لا تعترض مع ديني ومبادئ أخلاقي والباقي لا يهم.

_ إذن أتمنى لك كل التوفيق متى ستنشرها.

_ هنا المشكلة أيها الإمام، هناك عدة دور نشر رفضت رواياتي ، حاولت النشر عن طريق الطبع مع المطابع لكنه مكلف من جهة، ومن جهة أخرى لن تصل الرواية بالشكل الذي أريد ، أفضل النشر مع دار نشر لكي توزع الرواية بالشكل المطلوب.

_ إذن توكل على الله ولا تيأس، هناك دار نشر ستقبل روايتك بكل فرح

_ أعلم هذا ولكن أريد أن أخبرك بسر صغير ولن أتكلم في التفاصيل، لا أريد شفقتك.

_ إن شاء الله خيراً، تحدث ما بك؟

_ لا أعرف كم سأعيش، وهل ستنشر كلمات هذه؟

_ قاطعت كلامه قائلاً : سليم لحظة ما هذا الكلام الفارغ لا أحد لديه علم كم سيعيش العلم عند الله والأرواح بمشيئته

_ ونعم بالله أنا مريض أحمل داء في جسدي ، لا أعرف كم سأعيش، ولا يهمني ذلك، ولا أخاف من الموت، والحمدلله على نعمة المرض والصحة، لا أستطيع النوم، أخشى الموت قبل تحقيق حلمي وهو نشر بعض أفكاري ربما قد لا تحتمل الصواب لكني أريد ذلك وأعيش على هذا الأمل

_ الأمل هو الحبل الذي نتشبث به، لكن حسن الظن بالله أعظم

_ قال لي وهو يبتسم : أريد منك سيدي الإمام أن تحتفظ بهذه المسودة ، ربما إذا لم يكتب لي نشرها ، افعل ذلك إذا رأيت بأنها تستحق.

_ سأحتفظ بروايتك، إن شاء الله يكتب لك نشرها بدون أن أضطر لذلك

بعدما سألت أنس عن هذا الشاب أخبرني بقصته المؤلمة مع المرض، حزنت لأجله، لكن هذه حكمة الله .

في المساء كانت العودة للبيت عند وصولي لم أجد أحد قمت بوضع مسودة رواية سليم في درج مكتبي ووضعت الهاتف في الشحن ، انتظرت قليلا، قمت بإشعال الهاتف للاتصال بأبي ، تفاجأت بمئات الاتصالات والرسائل من أبي وبعض الأصدقاء.

قرأت إحدى الرسائل مفادها (إنا إليه وإلينا رجعون العم سعيد في ذمة الله، لله ما أخد ولله ما أعطى ، إذا قرأت هذه الرسالة حاول العودة قبل صلاة العصر سندفن المتوفي بعد صلاة العصر في مقبرة الشهداء)

هذا الخبر كان له واقع الصدمة حقيقةً لكن هذه سنة الحياة ، خرجت مسرعاً متوجهاً لبيت العم ،- لله ما أخد ولله ما أعطى هأنا اليوم أفقد شخص كان أخ وصديق وعم لي، لم أكون حاضر في وقت دفنه، وصلنا إلى البيت، صمت رهيب، تتخلله بين الفينة والآخرة تمتمة بعض الحاضرين داخل باحة البيت التي تبدو أحيانا ملجأ لبعض الفضوليين والنمامين، هؤلاء يحضرونا في كل المناسب،ة في الأعياد ،الأعراس، كذلك في الجنائز .

المتوفي عجوز مغربي الجنسية ، بهي الطلعة ، نحيف الجسم ، طويل القامة ،شعره الأبيض الناعم يزيده وسامة وجاذبية ، يدعى الحاج سعيد .

بعد تفرقت الحشد وذهب الجميع إلى بيوتهم، ظلت والدتي مع العمة.

في الصباح اتصلت بي أمي للذهاب لبيت العم لحضور مراسم التفريق

إنها تقاليد أصبحت منتشرة عند المغاربة بعد وفاة الشخص ودفنه.

في اليوم التالي يجتمع أفراد عائلته وجيرانه.

ذهبت إليها كان اليوم طويل علي، فقدان الأشخاص الذين نحبهم صعب، آه كم مؤلم الفراق ، لكن هذه سنة الحياة ، بعد صلاة الظهر توجهت للمقبرة، قرأت ما تيسر من القرأن على روح العم والمسلمين، ودعوت له بالرحمة والمغرفة له ولجميع أمة محمد عليه الصلاة والسلام .

تذكرت قبل عشرون سنة من اليوم، سألني الشيخ الذي كنت أحفظ وأتلقى منه العلم عن أكبر مدينة من حيث عدد السكان، أجبته، ربما توجد في الصين أو الهند أو روسيا نظراً لكثافة السكان، لكن إجابتي كانت خاطئة وقال لي ستعرف الإجابة يوما ما عندما تصبح أكثر نضجاً .

الإجابة هي المقبرة، أكثر مدينة من حيث عدد السكان . على كل إنسان يعتنق ديانة الإسلام في هذه الحياة زيارة المقابر مرة في الشهر على الأقل لكي لا ينسى أين تكمن النهاية . كذلك على كل من لديه عقائد أخرى سواء كان الدفن أو الحرق أن يحضر أخير المراسيم لترتاح النفوس من الكراهية والتعلق بالدنيا .

بعد وفاة العم بأيام رجَعَ أبي برفقة أمي إلى القرية، افتقدت وجودهم معي وأحسست بفراغ غيابهم في حياتي لأول مرة من سنين، حيث عشت حياتي بعيدا عنهم بسبب الدراسة، وبعدها ظروف العمل ، في يوم مشرق وغائم في نفس الوقت جاءت إليَّ وقالت لي هل يمكنني أن أسألك؟

_ قلت لها : تفضلي أسمعك.

_ قالت لي : لماذا أراك مبتسماً وتضحك رغم كل المشاكل والصعاب التي تواجهها في طريقك؟

_ قلت لها : لنخرج إلى المدينة ونتمشى قليلاً وبعد العودة إن شاء الله سأجيب على سؤالك هذا.

كل الطريق كنت ملتزم الصمت، حاولت التحدث معي في كثير من الأمور، عند العودة للبيت قالت لي :أنتظر الإجابة منك.

_ قلت لها : أخبريني عندما خرجنا في طريق الذهاب والعودة ماذا رأيتِ

_ أجابت وهي في حيرة من أمرها : هل تتهرب من السؤال سيدي الإمام؟

_ قلت لها : لا، لا أتهرب من الجواب، لكن جوابي يكمن في إجابتك على سؤالي

_ ترددت في الإجابة وبعدة لحظة من التأمل قالت : لقد رأيت عدة أشخاص ، سيارات ، محلات للبيع ، هذا كل ما رأيت.

_ أريد تفاصيل كل ما رأيت ولفت انتباهك

_ رأيث أشياء محزنة وأخرى مفرحة.

_ تحدثي عن تفاصيل ما رأيتِ دون إغفال أي شيء

_ رأيت فتاة صغيرة شعرها تم حلقه إثر مرض السرطان ، شاهدت رجل رجله مبتورة ، نساء متسولين في الشوارع ،رأيت شجار بين بعض الأخوة ، سمعت صوت سيارة الإسعاف.

أما في ما يخص الأشياء السعيدة رأيت أمهات وآباء يلعبون مع أبنائهم في الحديقة، رأيث شاب يساعد عجوز ، رأيت الابتسامة في عدة وجوه ...الخ

أكملت كلامها، هل ستخبرني الآن؟

_ الصبر وحسن الظن بالله والأمل مفتاح الفرح، ما نعيشه نحن في هذه الزاوية من العالم في الزاوية الأخرى ناس يعشون الأسوأ

لكن الحياة تحتاج الصبر لنعيشها ونحن من نقرر هل حياتنا أفضل من غيرنا أم أسوأ.

العبد الضعيف حياته هي الأسوأ على وجه الأرض ، والعبد القوي بإيمانه لا يفكر بهذه المعادلة، يثق بتدبير الله.

لم ترد على كلامي، انصرفات دون التفوه بكلمة، بعد مرور أسبوع على هذا النقاش، رأيت عدة تغيرات في حياتها ، كانت تظل إلى ساعات متآخرة من الليل تتعلم الخياطة والطرز ، وأصبح خروجها نادراً إلا في أيام حصص التعلم.

خرجت في أحد الأيام، كان الثلاثاء من أيام السنة، لم أرجع إلا بعد صلاة العشاء دخلت للبيت ، وتفاجأت بعدم وجودها، ناديت عليها ربما تكون في إحدى الغرف لكن دون جدوى.

انتظرت عودتها أكثر من ساعة من الزمان، سمعت جرس الباب، قلت في نفسي ربما تكون هي فرحت، كنت أنتظر قدومها لأخبرها بشيء مهم ، هكذا خُيل الأمر لي.

فتحت الباب وجدت صديقي الإعلامي عادل

سلمت عليه، تكلمنا في عدة أمور، سألته عن سبب الزيارة، هل اشتاق لصديقه، أم هناك أمر ما؟!

سلمني ظرف، سألته عن محتوى الظرف، أخربني بأنه يوجد في الظرف دعوة لحضور حفل تكريمه كإعلامي السنة أو شيء من هذا القبيل.

قلت له : ما هو شعورك يا صديقي بهذا الإنجاز؟

قال لي : كل ما وصلت له بفضل الله والعمل الجاد.

_ قلت له : بعد مدة من الزمان حوالي ٤٠ سنة مثلا عندما تنظر للمرآة هل ستكون راضي على ما حققت

تردد في الإجابة وقال ليس هناك شخص راضٍ عن ما وصل له

_ عادل، أنتَ صديق لي وسأخبرك بحقيقة نفسك، أنتَ شخص انتهازي، إعلامي فاسد، لست مخلص في عملك، ولا تقدم أي إضافة لهذا المجتمع من مركزك سوى التفاهة .....الخ

_ لم أكن أعرف بأني سيء لهذه الدرجة ، لكن معك حق، أنا أناني وأفكر في نفسي، هذه المبادئ التي تتكلم عنها تنتهي بعد التخرج، واحتكاكنا بسوق العمل نصادف شيء مختلف، هذه المبادئ لن تطعمك الخبز

_ أتمنى لك التوفيق في حياتك، لكن نصيحة مني حاول مراجعة نفسك قبل فوات الأوان ، هناك إعلامي وصحفيون نزيهون ويحملون مبادئ ولهم غيرة على المهنة الشريفة.

_ سأحاول الخروج من هذا المستنقع، لكن لن أعدك بشيء.

_ نحن نحتاج لأشخاص شرفاء ولديهم قيام ومبادئ ،كل شخص من مركزه وعمله لنتقدم خطوة للأمام والاستيقاظ من هذا السبات الذي أصاب الأمة العربية والإسلامية.

_ قال لي : يوجد في كل مكان وكل مؤسسة حكومية أو خاصة أشخاص أنانيون يفضلون المصلحة الخاصة على المصلحة العامة، وأنا أحدهم مع الأسف

_ نعم معك حق، مؤخراً قضيت ليلة في السجن وأنا بريء، أخبرني الضابط هل لدي شهود على كلامي، أخبرته هناك بعض الأصدقاء، قال لي شهادة الأصدقاء لا تجوز، كنت أعرف شهادة العائلة هي التي لا تؤخذ بعين الاعتبار، لكن عندما تكن المسؤولية في أيادي مثل هؤلاء.

قاطعني وقال وهو يتراجع للخلف هذا ما أتكلم عنه، الأغلبية فاسدة

_ قلت له : رغم ذلك في كل مؤسسة وإدارة خاصة أو عامة هناك شرفاء في كل زوايا الوطن هناك رجال ...والفرد يحاسب بمفرده

بعد هذا الجدال اعتذر عادل مني واستأذن بالرحيل، طلبت منه البقاء للعشاء معاً لكنه رفض.

بعد خروج عادل صعدت لغرفتي، لمحت ظرفاً فوق الطاولة، فتحته، وجدت بداخله رسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

السلام عليك سيدي الإمام ، لم أعرف كيف أبدأ رسالتي، ترددت كثيراً لم أكتب لأحد من قبل ولم أتلقى رسالة من أحد ، سأخبرك في البداية، ربما تجد في الرسالة أخطاء إملائية كثيرة ، لست بارعة في اللغة العربية .

أما بعد..

أشكرك لأنك استقبلتني في بيتك ومع أفراد أسرتك وتحملت كلامي القاسي والدنيء ، أشكرك لأنك أمسكت بيدي إلى بر الأمان ، أشكرك لأنك لم تسألني عن اسمي ولم تتعامل معي مثل الباقي.. سأخبرك بكل شيء عني، وبماذا أحس

أنا قصة مليئة بالدموع ولم يقرأها أحد غيرك.. تحملت المعاناة التي عشتها أيها الإمام ، لكن هناك شيئاً ناقصاً في حياتي أيها الإمام.

هل تتذكر تلك الليلة التي ذهبت لبيت العم سعيد رحمة الله عليه

ظلت ولدتك طوال الليل تنتظر عودتك .

لم تنام ، من خلال أمك عرفت قيمة الأم وعظمتها.

أتمنى لو ألتقي بأمي مرة وحيدة في حياتي وسأسامحها على كل شيء

بوجود الأم يصبح العالم أشبه بالجنة ، لا أعرف أين ذهبت وتركتني وحيدة.!

تخبرني دائما أيها الإمام بأن الأم عظيمة ، هل التي ولدتني ليست بالأم ؟

أنتَ أخبرتني بأن أمك مثل الشمس في حياتك وأباك مثل القمر

في غياب الشمس والقمر أنا أعيش في ظلمة.

أعتذر لك أيها الإمام لأني سأغادر دون أن أخبرك، هكذا أنا، لا أحب الوداع

كل من تركوني لم يودعوني، ربما أنا مثلهم، سأمضي في طريقي وأنتَ في طريقك،

هل أجد الراحة يوماً ما بين أحضان أمي؟

هل سألتقي بأبي وأخبره كم هذا العالم مليئ بالمآسي والألم؟ .

لكن في نهاية الأمر تعلمت منك أن حسن الظن بالله والأمل مفتاح الفرج.

الحياة بدون ألم ومشاكل لن تكون جميلة، ولن تكون لها قيمة

أحلى أيام حياتي أيها الإمام كانت حينما عرفتك.

سأعترف لك إذا كنت زوجا ستكون أفضل زوج، إذا كنت أب ستكون أفضل أب،

إذا كنت أخ ستكون الأفضل.. أعتذر على كلماتي المبعثرة.

الوداع في أمان الله..قضيت هذه الليلة أفكر فيها وفي الكثير مثلها، وأفكر في كل شخص قابلته مؤخراً ، وكم هي الأوضاع سيئة في وطني، البطالة، الفقر، تعليم لا يرقى للمستوى، الصحة كذلك، كل شيء مبعثر، أفكر في غياب العدالة بين الناس،

أفكر بالجهل الذي نعيش فيه، بعد عناء التفكير ذهبت للنوم لأرتاح قليلاً وأهرب كما يهرب الكثيرون مثلي، كما يقال الصمت سيد المواقف

استيقظت على صوت زقزقات العصافير تخترق جدران المنزل وتصل إلى مسامعي .نهضت وتوجهت للشرفة ..جلست مدة طويلة أستنشق ريح الصباح بنشوة كبيرة ، وأفكر فيما عشته خلال هذه الشهور، ربما هذه قيمة الحياة، يجب ألا نستسلم ولا ندع مجال لليأس في حياتنا...الحياة مثل قطار سريع، هكذا الناس، هناك من يدخل وهناك من يخرج، وفي نهاية الأمر كل شخص سيدخل لقبره وحيداً

قررت عدم البحث عنها وأُكمل حياتي أتمنى، لها التوفيق والسعادة أينما كانت

النهاية

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع